الأزدواجية في الأدب

علي السيد هاشم

الازدواجية في كل شيء وضع يحتاج الى التأمل والدراسة والى معرفة أسبابـه • والازدواجية حالة لا يمكن أن تبعث على الاغفال وعدم الاكتـرات • وفي المجتمعات التي تكون أوضاعها غير سليمة وتنتابهاالازمات العنيفة وتعبث بها المشاكل المتعددة وتنحدر مجموعاتها البشرية الى مستوى رديء وتتعقد فيها الحياة الى أبعد حدود التعقد ، في مثل هذه المجتمعات التي تعيش حياة الانحطاط والتأخر تنتشر الازدواجية وتجد لها صدى عميق في تربة هـذه المجتمعات وتصبح وكأنهـا حالـة طبيعية ، لانها نبتة هذه المجتمعات ولانها سلوكالمجموعات البشرية في هذه المجتمعات • ومن هذا الشيء المقتضب الذي أسلفناه نحاول ان نلقي نظرة على الازدواجية في الادب • واذا كنا نضطر الى قبول الازدواجية في سلوك الفرد الذي تفركه ماكنة المجتمع المتردي وتفرض عليه اداء فريضته الصلاة عشاء وسرقة اخيه البسيط الذي يقاسمه الحيـاة والمعتقدات الدينيـة وقرابـة الاواصر والقومية ـ في منتصف الليل • اذا كان لا بد من تعليلنا واعترافنا بهذه الازدواجية في « سلوك » « بشر » يدور في الماكنـة المتداعية ، فما هو موقفنا من الازدواجية في الادب وهل يمكن الاعتراف بازدواجية الاديب والفنان وهـل تختلف ازدواجية الاديب والفنان عن ازدواجية الآخرين • هذه اسئلة نحاول الكشف عنها هنا ونحاول ان نهتدي الى أجوبة معقولة لها • وقبل محاولة الكشف عن هذه الاسئلة والاجابة عنها نريـد أن نعرف ماهية الازدواجيـة في الادب • ولا تهمنـا في هـذا المجال التعريفات الكثيرة لمصطلح الازدواجية ، فالذي يفهمنا معناه العام الواضح • ان الذي نقصده بالازدواجية هنا هو التناقض الواضح بين الدعوة والسلوك ، بين الاعلان والحقيقة ، بـين القـول والعمـل • وعلى هـذا الفهم للازدواجية نريـد أن نحـدد معناهـا في الادب • ان الازدواجية في الادب تعني ان لا يظهر الاديب او الفنان على حقيقته أمام القارىء •• تعني وجود التناقض البين بين قوله وشعوره الحقيقي •• يقول ما لا يشعر وما لا يطبق ويعمل •• تعني أن يناقض الاديب « الانسان » الاديب « على الورق » • ان الازدواجية تفترض وجود هوة واسعة بين « آثار » الكاتب والفنان وبين شخصيته وسلوكه الفعلي • ان الاثر الادبي ، شعرا أو نثرا ، لا يمكن أن يفهم الا على انه تجربة حية يعانيها الشاعر او الكاتب •• هذه التجربة التي تكشف عن المشاعر والاحاسيس الحقيقية لصاحبها • وان الاثر الادبي ليس الا التجسيد الفني العملي لتجربة الكاتب أو الشاعرالحية الصادقة ، وليس هو عملة مزيفة ليس لها رصيدحقيقي•

فاذا عرفنا ان الازدواجية في الادب تعني التناقض الواضح بين « آثار » الاديب أو الفنان وبين حقيقة سلوكهما ومشاعرهما الفعلية •• البعد الشاسع بين دعوة الاديب واعلانه وبين تجسيده الفعلي لهذه الدعوة وهذا الاعلان •• اذا عرفنا ان هذه هي الازدواجية التي نقصدها •• فهل نقرها •• أو نقف ضدها •• هل نعترف بها او نرفضها •• هل نجد لها الاعذار او نحكم بعدم شرعيتها• وقبل ان نسجل رأينا النهائي دعنا نرى ما هو نقيض الازدواجية حتى نصدر حكمنا الصحيح على الازدواجية ونقيض الازدواجية الواضح هو « اللاازدواجية » فدعنا نرى ما معنى « اللاازدواجية » وخاصة في مجال الادب •

ان « اللاازدواجية » لا تعني مطلقا ان لا تتعدد مشاعر الفرد وتكثر أحاسيسه •• فعدم تعدد مشاعر الفرد وكثرة أحاسيسه يعني فساد طبيعة الانسان ، لان طبيعة الانسان والظروف التي تمده بالحياة تفرض عليه مشاعره المتعددة وتفرز فيه الاحاسيس الكثيرة • انه ليس حراما أو شيئا محظورا ان تجيش في صدر الانسان المشاعر الوطنية عندما تستدعيه حادثة أو يثيره نبأ ، ومن ثم بعد ذلك بزمن تثور في أعماقه مشاعر الجنس ، ويلفه بعد ساعات احساس بالحزن والالم وقد تدفق عواطفه من بين عينيه قطرات ساخنة ، ويثور ، هو نفسه ، في مناسبة ما صارخا في وجه أخته الصغيرة لانها تركت قدح الماء يسقط من يدها لتتلقاه أرض الغرفة الصلبة هشيما ، ولكنه ، هو نفسه ، يجلس في الليل مع نفس أخته وأخوته يقص عليهم أحاديث التسلية ويداعبهم بنكاته وابتساماته العذبة ، وينام بعد ذلك لتحتل مخدعه أحلام حمراء كلها شهوة وظمأ للجسد !!•• ان هذا السلوك ليس ما يوصف بالشذوذ أو التناقض بل هو سلوك طبيعي بالنسبة لانسان تغلي في دمه ثورة الشباب • وهذا السلوك الطبيعي الذي يسلكه هذا الشاب هو وأمثاله من الشباب سلوك قريب من اللاازدواجية وبعيد عن الازدواجية • ان هذا الشاب يمثل نفسه ، وان سلوكه يصدر عن حقيقة طبيعته وتركيبه البيولوجي والعقلي وبيئته الاجتماعية • وعلى هذا يمكننا القول بأن « اللاازدواجية » في الادب تعني أن ينطلق الاديب أو الفنان على سجيته وأن يفتح أمام أعماقه كل السبل وكل المجالات التي يمكن أن تنطلق فيها وتتجسد فيها امكانيات تحقيق آمالها والتخلص من آلامها وتعني أن يقدم الكاتب أو الفنان شعوره وما يعتلج في أعماقه هو نفسه لا ما يفرض عليه •• لا ما يجبر عليه ، بل على الفنان أن يرسم صورة نفسه ، أن يعطي للقارىء المشاعر الحقيقية والاحاسيس الفعلية التي تدفع قلمه الى الورق مهما كانت هذه المشاعر وهذه الاحاسيس ومهما كان تأثيرها في القارىء ورد الفعل بالنسبة لها ، فقد تكون مشاعر الفنان وأحاسيسه شيئا لا يمكن هضمه كريه الطعم وغير مقبول ، وقد يقف القارىء ـ باحاسيسه ومشاعره وأفكاره ـ ضد أفكار هذا الفنان وأحاسيسه ومشاعره ، وقد يحدث العكس وتكون أحاسيس الاديب وأفكاره ومشاعره نغما عذبا ينعش أعماق القارىء وزادا فكريا ذكي الرائحة تستقبله نفس القارىء بفرحة كبيرة وعندئذ يجد أدب الكاتب صداه الطيب في نفس القارىء ويكتسب حب وصداقة القارىء الروحية ، غير أن الشيء المهم في هذه الناحية هو ان الاديب عبر عن نفسه وشعوره وأحاسيسه بصدق وصراحة وما على القارىء الا أن يستجيب لشعور الكاتب أو الاديب أو ان يقف ضده أو يقف منه موقفا آخرا حسبما يتركه أدب الكاتب من انطباع وتأثير في نفس القارىء • وهذا يعني أن « اللاازدواجية » تجيء مع الصراحة والصدق والاخلاص• فاللاازدواجية لا تعني ـ بأية صورة من الصور ـ ان يعبر الاديب ويكتب عن شيء معين يكاد يكون مفروضا عليه وليس بوسعه أن يكون بمنجى عنه ، بل على العكس هي تعني حرية الاديب • والاديب العربي المخلص لفنه ولنفسه والذي يعمل من أجل مجتمعه العربي والانسانية بأمانة وايمان ، عليه ان يكون أدبه صادرا عن احساسه الصادق ، وشعوره المنبثق من أعماقه، وثمرة لتفاعله مع الحياة التي يعبر عنها ، ويجب ان

يصدر أدبه عن تجربة يعيشها وتعيش في قلبه وفي وجدانه وأعماقه . وبعد أن القينا بعض الضوء على « اللاازدواجية » وعرفنا مدلولها ومعناها في المجال الادبي فسوف نحاول تحديد موقفنا من الازدواجية في الادب . ولقد ذكرنا سابقا بأن اللاازدواجية هي الصراحة والصدق والعفوية والانطلاق الذاتي وهذا يعني أن الازدواجية تعني عكس ذلك انها تعني التناقض بين الدعوة والسلوك، بين القول والعمل .. أليس هذا هو الزيف بعينه .. اليس هو التصنع .. ان الازدواجية سلوك غير سليم وغير طبيعي فهل يختار الاديب أن يكون « مزدوجا » . ليس شيئا طبيعيا أن يكون أي انسان مزدوجا ، فليس في الازدواج الا التصنع والافتعال والاصباغ الكاذبة . الحماس لقضايا الدين في وقت يستطيع فيه اللسان أن يقوم بأعظم دور ، واقتراف اثم مع ذات الزوج في وقت يسوده الظلام ، هذه هي الازدواجية وهذا هو التصنع والنفاق . ان الازدواجية منكرة على الاديب في سلوكه وأدبه . منكر على الاديب أن يرتشي أو يسرق أو يتعامل مع المستعمرين وأعداء الشعب ، وهو يعلن سخطه ونقمته في كتبه على الرشوة والمرتشين وعلى السرقة والسارقين وعلى الاستعمار والمستعمرين .. فأي مهزلة يجسدها القارىء عندما يشاهد الاديب الذي يدعو الى الاصلاح يعزز الفساد ويجد الانسان الذي يناهض الاستعمار وعبيده في كتاباته يتعامل معهم بشخصه ان ازدواجية الاديب هذه ما هي الا عملية تغطية لنفسيته الحقيقية وما هي الا استخدام عملة مزيفة لشراء السمعة في عالم الادب والكتابة ونوع من الوصولية والتمويه . ومع اعترافنا بخطورة الازدواجية وضررها على الادب والادباء فاننا سنلقي بعض الضوء على مفهوم السلوك لدى الكاتب أو الشاعر الذي هو « فرد » .. فأنا لا أعتقد بأن « الشاعر تنتابه حالة وطنية فينشد شعرا وطنيا .. ثم تصيبه حالة نداء جنسي فيضاجع الفتيات وهو ينشد شعرا اباحيا وغزليا [1] » بأنه « مزيف » ولكنه قلق .. فالروح الوطنية لا تمنع الشاعر او الكاتب أو أي فرد من أن يشبع رغباته الجنسية ، وان كانت الروح الوطنية تدعو الى اشباع الحاجات الجنسية بالطرق الشريفة ، ولكن الازدواج والزيف هو ان الشاعر تنتابه حالة وطنية وينشد شعرا وطنيا ولكنه لا يعمل في الحقل الوطني بل ربما قد يقف ضد الحركة الوطنية — في السر — .. ان الازدواج هنا ، وليس الازدواج في الشعر الوطني والشعر الغزلي . والعمل الوطني لا يمكن أن يفهم على أنه « نوبات » يأتي بعدها الشعر الوطني . ان العمل الوطني مشاركة فعلية مع الشعب وتجربة نضالية تستدعي كل شيء في الانسان حتى دمه الغالي ، فاذا كان الادب يصدر عن مثل هذه المشاركة وهذه التجربة ، فهو الادب الوطني .. وليس الادب الوطني رصف الكلمات المستهلكة ، والشعارات الشائعة ، واصطناع الحماس والثورة .. انه تجربة .. وانفعال صادق .. ومشاركة فعلية .

انا لا يمكن أن نقر الازدواجية لاننا لا يمكننا أن نوافق على الزيف وان نشجع وضعا غير طبيعي وامرا غير سليم . والدعوة الى « اللاازدواجية » في الادب هي نفسها دعوة الى حرية الاديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه الحقيقية مهما كانت هذه المشاعر وتلك الاحاسيس ، فالشيء المهم بالنسبة الى الادب ، والى الحقيقة ، هو الصدق .. هو الصراحة ، وما على القارىء الا ان يستجيب أو لا يستجيب ، ان يقر او لا يقر .. ان يرضى او لا يرضى .. أن يوافق أو يعارض .. ان هذه المواقف متروكة له لذوقه ، لاحساسه ، لاحتياجاته الروحية والفكرية . وعندما ندعو الى حرية الاديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه الحقيقية التي لا تناقض سلوكه العام وشخصيته الحقيقية بغية العادة عن ازدواجية ضارة ، عندما أدعو الى هذا فأنا — كقارىء عربي — أفضل في هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع العربي الادب الذي يتحدث عن مشاكل الامة العربية ، ويواكب النهضة العربية القومية في الوطن العربي بكل ما تتصف به هذه النهضة من تحفز وانطلاق وبناء وكفاح وبكل ما

تحتاج اليه من صمود وتضحية واخلاص وثورية بناءة ، ولكني مع ايماني بضرورة هذا الادب الكفاحي المنطلق من رغبة ووعي وحرية الاديب الذاتية ، فانني لا أطلق الاحكام التجريمية ضد الاشكال الاخرى من الادب ولا يحق لي أن أطلب من الفنان هذا النوع من الادب أو ذاك دون أن يقدمه لنا هو بطواعية ورغبة وحرارة ذاتية • ان الادب الصحيح هو الذي ينبع من نفس الاديب ولا ينتزع منه انتزاعا •• كما اننا ليس من حقنا أن نسمي الادب الذي نحب ونرغب بأنه « أدب » وبأن الادب الذي لا نحب ولا نرغب بأنه « ليس من الادب » حتى وان كان مبعثه الصدق والاخلاص وتتوفر فيه الشروط الفنية • ان من حقنا ان نقول انه أدب غير مفيد أو أدب رجعي •• ولكنه مع كل ذلك فهو « أدب » وله مقوماته الفنية والتي قد لا نرضاها ونعارضها • ان الذين يحاولون فرض موضوعات معينة على الاديب – باسم الالتزام – لم يفهموا معنى الالتزام في الادب حق الفهم ، فالاديب او الفنان هو الذي يختار ما يلتزم وفق ظروفه وأفكاره وارتباطاته الاجتماعية ودوافعه الذاتية فالفنان لا يمكن أن يلتزم موضوعات معينة الا اذا « أراد » هو

التزامها • من كل ما قر نجد أن « الحرية » هي الجو الصحيح الذي تتفجر فيه طاقات وامكانيات الفنان وهي التي تكشف عن ابداعه وعن قصوره ، عن تقدميته وعن رجعيته ، وعن نجاحه وعن فشله • الحقيقة ان «التزمت» مكروه في كل مجال من مجالات الحياة وهو يؤدي الى الفشل في معظم الاحوال • أما في الادب « فالتزمت » عدو مقيت للاديب يعمل على اجداب روحه وتجميد ينابيعها الثرة • ان التصنع والافتعال والتزمت والاطلاق •• والاتهام •• والغرض كل هذه الامور ليست في صالح الادب بل ضده •• بل كلها انصال تغمد في روح الادب الصحيح • ان الادب الصحيح – في رأيي – هو ثمرة للحرية الواعية – والفكرة النيرة ، والتجربة المعاشة الصادقة ، والانطلاق الذاتي ، والعفوية المهذبة ، والتفاعل الحر والنقد الموجه البناء ، وهو انبثاق عفوي عن المعرفة الصحيحة والادراك السليم والتمثل الحي الواعي للواقع ومشكلاته • ان حرية الكاتب في الكتابة – كما يشعر ويحس – وحرية القارىء في الاستجابة والرفض لما يقرأ – كما يرغب ويشاء – ان هذه الحرية هي الكفيلة بالقضاء على الازدواجية في الادب •

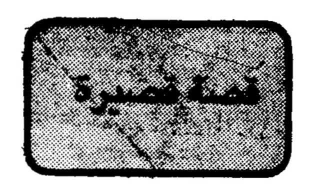
(١) جورج جبور « العدد الحادي عشر من مجلة الأداب » ١٩٥٦ •

فإن لم ينتهوا راجعت ديني

كان ابو المطرب من لصوص الحجاز فتاب ، فظلم فقال :

ظلمت الناس فاعترفوا بظلمي فتبت ، فأزمعوا أن يظلموني

فلست بصابرٍ إلا قليلاً فإن لم ينتهوا راجعت ديني



بطون خاوية



رياض ، او ابو الروض كما يسمونه تدليلا ، غلام وديع مهذب الخلق حباه الله بمسحة من الجمال ورغم انه ليس الابن الاكبر لوالديه ، الا انه الابن الوحيد الذى لازال منتظما فى دراسته يتابع تحصيله العلمى بشىء من الاصرار ، فقد استطاع والده ان يثنى اخويه اللذين يكبرانه سنا فاخرجهما من المدرسة والحقهما باعمال يدوية كيفما تيسر ليحصل منهما على مزيد من الاموال يمتع بها نفسه وينفقها فى غير ذى نفع او فائدة بينما تعيش اسرته فى حالة من الفقر والعوز ما كان يجب ان يكون لو ان سلوكه كان منتظما وحياته تسير فى الوجهة الصحيحة لحياة انسان مسؤول ورب اسرة وزوجة واولاد ، لقد امرهما بترك الدراسة فانصاعا مكرهين وعملا فيما استطاعا ، وجلس لهما كالجابى ، لايجلبان شيئا من المال الا آل الى جيبه وهما لاحول لهما ولاقوة ، فان حاولت الام المسكينة التدخل للحصول على قليل من المال لشراء بعض حاجيات الاسرة الضرورية فلا تجد الا سيلا من الشتائم والسباب وقاذع القول فتلوذ بالصمت لاتنبس ببنت شفاة حتى يغادر المنزل فتترك لدموعها العنان .

ولم يعد امام هذه الام المسكينة من سبيل الى الخلاص الا رياض حتى بدا امامها كطوق النجاة امام غريق فى بحر لجي فاخواه استطاع والدهما ان يدمر مستقبلهما باخراجهما من المدرسة كما استطاع ان يدمر حاضرهما باستنزاف كل مايحصلان عليه بينما ترك لاهوائه العنان دون ان يرعى شؤون بيته او يلتفت لامر من امور اولاده لذا فقد

رات الأم فى ابنها رياض الورقة الباقية التى يمكن ان تحقق شيئا من امالها وطموحها فى حياة كريمة مستقرة فتشبثت به واصرت على بقائه فى المدرسة ولاسيما انه يحقق افضل النتائج ويحصل على اعلى المعدلات ، فهو يفوق اقرانه جميعا فى الفصل بالعديد من الدرجات حتى ان احدا من زملائه لايستطيع منافسته على مركز الصدارة فى الفصل سنة تلو سنة .

كم من شجار حدث بينهما وبين زوجها ، وكم من حرب ضروس قامت بينهما لكنها تصر وفى كل مرة تزداد اصرارا على اصرارها حتى انه قال لها ذات مرة :

– اسمعى يالمرأة .. اما ان يترك رياض المدرسة ويلتحق بعمل ما مثل اخويه او تتركى انت البيت .. لقد صبرت عليك طويلا لتدعى عنك هذه الصلابة ، اما الان فقد نفد صبرى .

لم تكن كلماته بالتى تزحزحها عن موقفها ، فقد عانت الكثير ، وشعرت انه لابد من وقفة فى وجهه ، لذا سرعان ماخرجت الكلمات من شفتيها كالسهام على غير ما اعتاد ان يسمع منها :

– بل اسمع انت .. لقد عانيت كثيرا وصبرت اكثر ولم يعد فى وسعى المزيد .. لقد عانيت كثيرا حين كان اولادى اطفالا يحتاجون الى ماترمى لهم من فتات ، ولكن الان ، وقد اصبحوا كبارا فلم تعد لنا بك حاجة ، فانت تعلم ان راتبك لايكفى لسداد ديونك الشهرية وحتى مايكسبه الابنان سرعان ماتبدده فى الحانات وعلى موائد الخمر والميسر بينما تدع اولادك فى حالة من البؤس لايطيقها بشر .. ان شئت طردى اخذت ابنائى وخرجت وتركت لك البيت .. ولتنعم ببيتك الخاوى وحاناتك وموائدك الخضراء .

ادرك ان الموقف بدأ يتغير لغير صالحه ، واراد ان ينهى الحوار بشكل ما فقال مزمجرا :

– أو تتحديننى .. بل انا الذى ساخرج .. انا الذى ساترك لك البيت والاولاد ..

خرج من البيت غاضبا مزمجرا ، وسرعان ما قادمه قدماه الى مكانه المفضل وجلسائه المعهودين .. الى الحانة وجلساء السوء وموائد المعصية ، وملأ رأسه من ذلك المشروب الدنس حتى فقد وعيه الى ان جن الليل وارخى سدوله عاد ادراجه الى البيت فارتمى على فراشه لايدرى بشىء مما حوله الى ان اصبح الصبح وخرج الى عمله .

وهكذا سارت الحياة على نفس المنوال وبدات بذرة الحقد والكراهية تنمو فى قلبه نحو ابنه الوديع المتفوق (رياض) وكلما زادت امه صلابة وكلما زاد ابنه تفوقا زاد حقدا وكرها له . لكنه لم يعد قادرا على فرض ارادته ، ذلك ان الابنين اللذين اخرجهما من المدرسة ليعيناه . على تحقيق نزواته ورغباته قد اصبحا مصدر توازن بينه وبين زوجته ،

اعطياها شيئا من القوة أو على الاقل شيئا من الطمأنينة للمستقبل ولو بدون هذا الزوج الذى اثقل كاهلها لسنوات طويلة .

انعكست احقاده وكراهيته على تصرفاته فاصبح يعامل « رياض » بمزيد من القسوة تزيد كثيرا عما يعامل بقية اخوته وكثيرا ما كان يتخذه هزوءا وسخريا ولا يحدثه الا صلفا وزجرا ، او تهكما وتقريعا ، ورياض لاتلين له قناة ولا تفتر له عريكة ، متقدم فى دراسته متفوق فى مدرسته يمخر عباب السنين وبوده لو استطاع ان يطوى السنين طيا حتى ينهى دراسته

انتهت السنة الدراسية واتم رياض السنة السادسة الابتدائية بنجاح منقطع النظير واتى يحمل

شهادة نجاحه جذلان فرحا ، وخرج من المدرسة ركضا الى البيت لايلوى على شيء حتى وصل الى امه فاخبرها بنجاحه ففرحت به فرحا عظيما وفرح له اخوته وكل جيرانه ، ولكن ما كان لفرحته ان تكتمل وابوه يقلل من شأن نجاحه وتفوقه ولايعيره اهتماما قط ولايكترث له بكثير أو قليل بل شعر هذا الاب التعس في قرارة نفسه بالهزيمة مما زاد من غلوائه وأجج في صدره احقاده وسرعان ما هب واقفا واتجه مسرعا الى حيث ما اعتاد عليه .

غابت الشمس وبطنه خاوية لم يتناول غذاءه بعد ، وجيبه خاوية فقد خسر كل مايملك على مائدة الميسر الا بضعة قروش مبعثرة لاتصلح لمثل هذه الامور وهم منتصبا وقد شعر بالاعياء وفتش في جيوبه فلم يجد فيها ضالته وتلفت يمنة ويسره فلم تقع عيناه على من يسعفه ولم يجد بدا من العودة الى البيت مرهق الجسم متبلد الذهن خاوى الوفاض وقد فعل فيه المشروب مافعل الى ان فقد وعيه حتى تكاد قدماه لاتقويان على حمله .

دخل البيت ، وخر مترنحا على اقرب مقعد قابله في طريقه ، ونادى زوجته مزمجرا :

- هل من طعام ؟

قبلت كفيها يدا على يد وقالت :

- البيت خاو ، وما دمت لم تأت بطعام فمن اين اتيك به .

قطب ما بين حاجبيه ، وزفر زفرة جامحة ، اهتزت لها اركان البيت وقال غاضبا .

- تبا لهذا البيت لايجد فيه المرء مايسره .

رأت عنينه تقدحان شررا ، فقصرت الشر ، وولجت الى الداخل فتناولت معطفها وغطاء رأسها وخرجت من البيت وتركته وحيدا الا من ولديه : رياض واخيه الاصغر زياد .

اغمض عينيه هنيه ثم فتحها بتثاقل وادخل يده في جيبه فاخرج ما تبعثر بها من نقود ونادى :

- يارياض .. يارياض ..

وماهي الا غمضة عين وانتباهتها حتى كان رياض يقف بين يديه منصاعا لاوامره قائلا بأدبه المعتاد :

- نعم ياابي ..

نظر اليه شزرا ، ثم اردف قائلا :

- تعال ياولد .. خذ هذه القروش واشتر بها كيلو من الطماطم ، وتخير الافضل ولاتبطىء تناول رياض القروش ، وانطلق مسرعا الى اقرب خضرى من البيت ، فنقده ما معه

واخذ منه مااشترى وكر راجعا الى والده لعله يكسب رضاءه او على الاقل لعله يتجنب غضبه .

امسك الاب بالقرطاس وتحسس محتوياته فادرك ان ثمة واحدة مما فيه على غير مايروم ويرضى ، وفي الحال نادى مزمجرا بقوله الفظ ولسانه السليط :

- تعال ياولد .. يالك من غبي احمق ..

وتسمر رياض في مكانه ، فقد ادرك ان العواقب لن تكون حميدة ، وان شرا مستطيرا في انتظاره ، وماهي الا غمضة عين وانتباهتها حتى افترشت حبة الطماطم وجهه ، فقد قذفه والده بها بكل ما اوتى من عزم فلطمته في وجهه وتناثرت على جسمه وثيابه .

اسرع اليه كالمجنون واخذ يضربه بلا وعي ولا رحمة فلطمه على وجهه مرارا وركله بقدمه الضخمة ركلات موجعات وفقد سيطرته على نفسه تماما ، وتلفت حوله هادرا كالثور الهائج فلم ير سوى حبل الغسيل ، وهو سلك معدنى طويل استعيض به عن الحبل الذى انقطع ولم يشتر سواه ، فاحكم قبضته على الحبل المعدنى الطويل وشده شدة واحدة فاذا به ينقطع واصبح جزءا منه حرا في يده فثناه ثنيتين او ثلاثا وانهال به على جسم الغلام الذى لم يقو على احتماله فاذا به يتضرج في دمه ويخر الى الارض فاقدا وعيه ، لكن الاب الثمل لايدرى عما يفعل ، بل ظل يضربه بكل قوة وجبروت حتى فارق الحياة واسلم روحه الى بارئها .

انهارت قواه وجلس يلتقط انفاسه ونظرات الغضب لازالت تنصب على الجثة الهامدة لكنها لم تبد حراكا فاوجس في نفسه خيفة ونادى ابنه الاصغر الذى تسمر قرب الجدار من هول ماراى وقد تجمدت اطرافه وامتلأ قلبه خوفا وهلعا :

- يازياد .. هات بعض الماء ، واغسل هذا الدم عن وجهه ..

أومأ زياد برأسه دون ان ينطق بكلمة ، واسرع الى الداخل ، وماهي الا لمحة حتى عاد بالاناء وبلل وجه اخيه بالماء المرة تلو المرة لكنه لم يأت بحركة وعندئذ قام الاب يرقب الامر فادرك ماجنت يداه من ذنب وما اقترفت من اثم ، فقال لابنه الصغير :

- اياك ان تحرك لسانك بكلمة والا قطعته .

تقدم من الجثة وامسك باليدين الباردتين وسحب الجثة على الارض مخترقا الصوان حتى طرفه الاخر ثم ولج من خلال الدهليز الطويل الى ارض

فضاء خلف المنزل حيث يوجد بئر قديم كان يستخرج منه الماء بالدلو فيما مضى ثم جف ولم يعد يستعمل فالقى بالجثة في البئر وعاد ادراجه الى الداخل صامتا .

خيم الليل والسكون على البيت وعاد كل من بالخارج وتساءلت الام عن ابنها الوحيد الذى لم يكن موجودا ، اذ ليس من عادته ان يتأخر خارج البيت حتى هذه الساعة ، لكنها لم تجد جوابا من احد وجرى البحث عن زياد بكل الطرق وشتى الاساليب دون جدوى ، ومرت الايام تباعا دون بصيص ولم يعد اختفاء رياض خافيا على احد من الجيران واهل الحى والكل يتساءلون وليس ثمة من يجيب حتى اذا كان زياد يلعب مع احد اقرانه اخذا يتجاذبان اطراف الحديث الطفولى البرىء فتذكرا رياضا فذكراه بالخير فاستطرد زياد قائلا لصديقه :

- الكثيرون يعتقدون ان رياضا هرب أو سرقة سارق ، لكن الحقيقة غير ذلك .

تنبهت حواس الصديق الصغير وقال مستوضحا :

- اذا ما الحقيقة ؟

رد يزاد بسذاجة طفل برىء :

- مات ..

قال صديقه الصغير بدهشة وفضول :

- اليس معقولا ذلك .. واين دفن ؟

رد زياد بعفوية :

- في البئر المهجور .

تنبه زياد الى ما قال فتلعثم وحاول ان يتراجع وينكر ماورد على لسانه ، وحاول ان يقنع صديقه الصغير بان ماقاله هراء ، ولابد له من نسيانه وعدم ذكره امام الاخرين لكن الطفل الصغير سرعان ماهب كهبوب الريح وانطلق الى بيته وماهي الا دقائق حتى وصل الخبر الى الام ومن الام الى الاب ومن الاب الى سائر الجيران والى الحى كله وسرى الخبر في الحى سريان النار في الهشيم ولم يعد خافيا على احد وفي صباح اليوم التالى كانت قوة من رجال الامن تبحث عن الجثة في البئر المهجور ولم ينتصف النهار حتى كان الاب التعس يرسف في الاغلال ملقا في زنزانة السجن المظلمة .

وتجمع كل افراد الاسرة في صمت وتجهم كأن على رؤوسهم الطير الى ان قطعت الام الصمت المطبق قائلة :

- رغم كل شيء لابد للحياة ان تستمر ولابد أن نبدأ مرحلة جديدة من حياتنا

جنوب سناء

قدمانِ : زلزالٌ وبركانُ
ويدانِ : زوبعةٌ وإنسانُ
هذا جَنوبُ سناءَ ! لَيْسَ لَهُ
إلاّ عيونُ سناءَ عنوانُ
وطني هو السبّاقُ: نسغ فدا
من قال: قد سَبَقَتْهُ أوطانُ؟!
هذا الجنوبُ: دَمٌ وأوردةٌ
فعلى ثراهُ تَعضُّ أسنانُ
شهداءُ في أرواحهمْ أنَفٌ
ضاقتْ بهِ وتَضيقُ أبدانُ
لِسَناءَ إلاّ الأرضُ، لا كَفَنٌ
وتغارُ مِنْهُ الآنَ، أكفانُ
يا وقفةَ العزِّ التي احترَقَتْ
في شمسها روما وتيجانُ
بَقِيَ الجنوبُ هو الوفيَّ لها
كلَّ الوفاء، وكلهم خانوا
لا شَهْرَ إلاّ جُنَّ: أمنيةٌ
لَوْ أنَهُ نيسانُ، نيسانُ
في قطرةٍ خضراءَ مِنْ دمها
غَرِقتْ محيطاتٌ وخلجانُ
نَسْرُ الجنوبِ سناءُ ! ثَلْجُ ذرا
حرمونَ في جُنْحَيْهِ نيرانُ
عنهمْ تُقاتلُ؟! لا، تقاتلُ عَنْ
عَلَمٍ، بهِ لم تَبْقَ ألوانُ
هي نبضةٌ عذراءُ ! قَبْلُ لها
لم يتسعْ أو بَعْدُ، شريانُ



تمشي الى مَوْتٍ، فتسبقهُ:
بَرْقاً إليهِ الغيمُ ظمآنُ
وتقولُ: هَلْ يذوي، وأرزتهُ
مِنْ خضرةِ الشهداء، لبنانُ؟!

محمد مصطفى درويش

بين إفلاطون والفارابي

د. أبو الهدى فؤاد الأسعد

بعد هذا التحليل لآراء الفارابي في المدينة الفاضلة[1] وأضدادها لا بد لنا من أن نقارن بين آرائه وآراء أفلاطون لان للفيلسوفين نقطا عدّة مشتركة في هذه الناحية • فكلاهما يسلمان أن الاجتماع البشري طبيعي وأن المدينة لا تقوم الا بتوزيع الاعمال والوظائف على حسب الجدارة والاستحقاق •

وكلاهما يتفقان في سن الشرائع وتطبيقها وحفظ الامن والسلام لا يتم الا اذا ملك الفلاسفة ونسقوا الامة وعلموا الشعب الحقائق الدينية وشرحوا لهم النواميس الكونية •

وكلاهما يشترطان على الفيلسوف الكامل التحلي بخصال تتناول كمال البدن والروح • واذا ثبت أهل المدينة على هذا التوافق الشامل خاضعين للحكماء توفرت لهم أسباب الهناء والسعادة واذا لم يثبتوا على ذلك اضطربت المدينة وتسرب اليها عوامل الخراب والانحلال • فيخيم الجهل ويسلك الاقوياء ويمحى العدل ويسود الاستبداد •

غير أن الروح الفارابية تفرق عن الروح الافلاطونية بأمور منها :

١ ــ الفارابي استنتج فلسفته الاجتماعية استنتاجا منطقيا دون أن يتبصّر بالواقع فهو يريد أن ينظم مدينته على مثال هندسة البدن • والافلاك السماوية والعقول المفارقة دون أن يرشدنا الى الوسائط الفعالة الضامنة لهذا التنسيق • فهو لم يخبرنا كيف نميز الاستعدادات الطبيعية في الافراد فنخصص أناسا للحكم وأناسا للتجارة وأناسا للقضاء وكيف نثقفهم وننمي فيهم هذه الخصال • على عكس أفلاطون الذي أثار هذه المشكلات وحاول أن يجيب عنها ويحقق بالعمل أحلامه •

٢ ــ والفارابي وإن حصر الحكم والتشريع في الفلاسفة كأستاذه أفلاطون فنحن مع ذلك نجد فرقا كبيرا بين عقلية حاكم (المدينة الفاضلة وعقلية حاكم الجمهورية) • فبينما نرى لباب جمهورية أفلاطون أن حاكمها يدرّب ويعلّم اذا جاز الامتحان حق له أن يرشح نفسه حاكما نرى لمدينة الفارابي إماما خلقها معصوما بالطبع عن الزلل وهذا هو رأي الشيعي في السياسة •

٣ ــ ثم ان أفلاطون ينظر الى خير الدولة ويصرح أنه لا عيب فيما يعود عليها بالنفع فينزع

عن الحكام الأسرة والملك ويجن بتلك الآراء الجريئة التي لم يتعرض اليها الفارابي في مدينته لشذوذها ومناقضتها للدين الاسلامي •

٤ ــ ولم يفحص الفارابي في أشكال الحكومة كأفلاطون ولكنه توسع في آراء أهل المدن الجاهلة ــ كالفلاسفة العصريين ــ بعض الفرضيات التي تخيلوها لشرح أصل الاجتماع وتكوين الدولة فأتحفنا بأصول نظرية تنازع البقاء • التي نجدها عند داروين ونظرية السوبرمان عند فيتشه •

٥ ــ في المدينة الفاضلة نرى كل فلسفة الفارابي كما نجد في كتاب الجمهورية كل فلسفة أفلاطون واننا على رغم التشابه في الاصول المسيطرة نلاحظ فرقا كبيرا في الفروع والتفاصيل فليست مدينة الفارابي صورة مصغرة لجمهورية الحكيم أفلاطون انما أبو نصر قرأ مصنفات اليونان واختار أحسن الاختيار ومزج فأحسن المزج فاستنبط لنا مدينة جديدة فيها لون أفلاطوني ولون اسكندري ولون اسلامي ولون شخصي حاصل عن امتزاج تلك العناصر والالوان •

الاخلاق العملية :

تظهر فلسفة الفارابي الادبية العملية في (رسالة السياسة) فهو يحدد لنا الغرض الذي دفعه الى كتابة هذه الرسالة • والهدف الذي يرمي اليه فنرى أن قصده قوانين سياسية يعم نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس •

ولا بد لنا قبل أن نطرق هذه الناحية من البحث . من أن نحدد معنى السياسة الذي كتب فيه الفارابي أولا ثم ابن سينا ثانيا ثم سواهما من فلاسفة العرب كالغزالي وابن باجة • فالعرب يقصدون بكلمة السياسة على وجه الاطلاق : تلافي الخلل وصلاح مافسد في الحياة الاجتماعية• وليس ما قصده فلاسفة اليونان من البحث في أشكال الحكومات ونظمها ولا بد من الملاحظة أن رسالة الفارابي ورسالة ابن سينا هما من المؤلفات النادرة في هذا الموضوع • بل النادرة في الحكمة العربية على الاطلاق • وهاتان الرسالتان تبحثان في موضوع له علاقة وثيقة في حياة الانسان العملية وصلاته بمن يحيط به من أقارب وغرباء • وهذا ما أبقى لهما قيمتهما وحببها الى المعاصرين •

الطبقات الاجتماعية :

يرى الفارابي أن الانسان يعيش في هذه الحياة بين أناس فوقه ، أو مساوين له ودونه لا فرق بين ملك أو صعلوك لان كل واحد مهما سما في هذه الحياة لا بد له من أن يجد من يفوقه في بعض النواحي ويفضل عليه بنوع الفضيلة ، اذ ليس في العالم ما هو من جميع الجهات • وكذلك الضيع الخامل فانه يجد أناسا دونه بنوع من الانواع •

فلا بد للانسان اذن من درس السياسة ليعرف كيف يتصرف مع هؤلاء جميعا ، مع الأرفعين لينال منزلتهم ، ومع الأكفاء ليفضل عليهم ومع الأدنين لئلا ينحط الى دركتهم • وينصح طلاب السياسة أن يتأملوا النفس ، معرفة الخالق ، ثم يحذر الانسان من نفسه فيفقه على أن له في نفسه قوتين الاولى بهيمية تنزع الى اللذات والآثام ، والثانية ناطقة (عاقلة) تدفع الى الصلاح وعمل الخير والاولى أغلب • فيجب أن يخمدها ويستعد للقضاء عليها عندما تحاول الظهور على القوة الثانية •

ثم يتكلم عن الطريقة التي تؤدي بنا الى معرفة الله ، فيثبت وجود الخالق ببرهان الاسباب، ويرى أن لا بد للانسان بعد أن توصل الى اثبات وجود الله من أن يصفه بأحسن الصفات فيرى مثلا أن الحياة أفضل من الموت فيقول عالم ومن هنا نشأت مسألة الصفات ، ثم يتكلم بعد ذلك عن الله وخلقه العالم والانسان خاصة واعطائه الاختيار والارادة والحركة والتمييز والفكر والنظر في العواقب فيرى أن الخالق لا يهمل أمر الانسان بل يرسل اليه من يرشده الى الطريق السوي والمرسل اليه يكون من الناس لكي يفهمه الجميع • وهو ينصحنا أن تتبع المجمعين على الرأي الواحد (فان الحق معهم والسلامة أبدا مع الكثير) •

ما ينبغي للمرء أن يستعمله مع رؤسائه :

ينبغي أن يكون المرء مع من فوقه ملاطفا مواظبا على خدمته لا يخش تعبا ، وأن يمدحه على أموره الحسنة ، ويتلطف في التنبيه على أموره القبيحة بطريقة غير مباشرة • فالرئيس كالسيل المنحدر من اعترض سبيله هلك فينبغي أن يواجهه من جانبيه ليقدر أن يعرفه حيث شاء، وأن يكون كاتما لاسرار رئيسه اذ ربما ينقلب الزمان فتكون العاقبة وخيمة ويجتهد أن يعرف الاعمال القبيحة الى نفسه ، اذا كان لا بد من الصاقها بأحدهما • وليحرص على الاستفادة من أسباب المنافع بالعطف لا بالالحاح • وليترك الشكاية واظهار السخط والعداوة ، ولا ينبغي أن يتخذ لنفسه شيئا مما ينفرد فيه الرئيس أو مما يليق بالرؤساء وأن يتعرف بنفسه في جميع الامور ، بل ليطلب رأي رئيسه في مشكلات الامور •

ما ينبغي للمرء أن يستعمله مع أكفائه :

لا بد للاكفاء أن يكونوا أصدقاء أو أعداء•
أما الاصدقاء ومنهم صنفان :

(١) الاصدقاء المخلصون ، فينبغي أن يديم ملاطفتهم ويتعهدهم بالرعاية ويكثرمنهم ويصفح عن زلاتهم •

(٢) الاصدقاء في الظاهر ، فينبغي أن يجاملهم ويجانبهم ولا يطلعهم على أسراره وعيوبه خاصة وليجتهد في استمالتهم ، ثم يتعهد حال أهله وأصدقائه عند الفاقة من غير أن يحوجهم الى المسألة •

وأما الاعداء فصنفان أيضا :

(١) ذوو الاحقاد والضغائن ، فينبغي للمرء أن يحترس منهم كل الاحتراس ، ويستطلع أحوالهم جهده ، فكلما اطلع منهم على مكر أو خديعة فليقابله بما يناقض تدبيرهم ويكثر الشكاية منهم الى الرؤساء ، وان يئس المرء من اصلاح عدوه وتحقق سوء نيته فليشير به حاملا الناس على كرهه منتهزا الفرصة في اهلاكه •

(٢) الاعداء الحساد : فينبغي للمرء أن يظهر لهم ما يعطيهم كأن يذكر أمامهم النعم التي يختص بها لتذوب نفوسهم حسرة وغما ، وليعمل على اظهار حسدهم وعيوبهم ليعرفهم الجميع • وأما سائر الناس (لا الاعداء ولا الاصدقاء) فمنهم :

(١) النصحاء الذين يتبرعون بالنصيحة فليتأمل الانسان نصحهم وليتعرف غرضهم إن لاح له وجه الصواب أخذ به والا فلا يعره التفاتة •

(٢) العلماء المصلحون : وهم الذين يتبرعون لاصلاح ما بين الناس فليمدهم ويتشبه بهم •

(٣) السفهاء : فليستعمل الحلم معهم ،

ويظهر لهم قلة الاكتراث •

(٤) أهل الكبر والمناقشة فليقابلهم المرء بمثل علمهم لانه إن تواضع لهم عدوا ذلك ضعفا وليتكبر عليهم علّهم يرجعون الى التواضع •

ما ينبغي أن يستعمله المرء مع دونه :

وهؤلاء يقسمون الى قسمين :

(١) المحتاجون ذوو الفاقة وهؤلاء أصناف، منهم المفلحون فان كانوا حقيقة محتاجين أعطوا الشيء الضروري ، والا فينبغي ألا يعطوا شيئاً• ومنهم الكاذبون • فلتكن معاملتنا معهم قاسية ليرعوا ، واذا كان كذبهم لا يضر ، فلنكن في مواساتهم وسطا ، ومنهم الضعفاء الصادقون فيتعهدهم بالمواساة جهده •

(١) راجع مقالنا « الفارابي الفيلسوف » المنشور في مجلة المجتمع اللبناني المصور عدد ٣٣ – ١٩٦٥

الأعين الباكيات

شعر : العبّاس بن الأحنف

كَانَتْ لنَا في صَفَر خَلوةٌ ذاتُ هَناةٍ يَا لَهَا مِنْ هَنَاةْ
في مَجْلِسٍ غُيِّبَ عَنْهُ العِدَا تَقْصُرُ عمّا كَانَ فيهِ صِفَاتْ
جَاءَتْ تَمَشّىَ بعْدَ لَبّانِها في نِسْوَةٍ يَمْشِينَ مُسْتَخْفِيَاتْ
جَلَسْنَ يَسْمَعْنَ أَحَادِيثَنَا ونحنُ نشْكو الكُرَبَ الدّاخِلاتْ
وهُنَّ يَبْكِينَ لنَا رَحْمَةً سَقْياً لتلكَ الأعْيُنِ البَاكِيَاتْ

•••

اغيبُ عنْكِ بودٍّ لا يُغَيِّرُه نأيُ المحَلِّ ولا صَرْفٌ مِنَ الزّمَنِ
فإنْ أعشْ فلعلَّ الدَّهرَ يَجْمَعُنَا وإنْ أمُتْ فقتيلُ الهَمِّ والحَزَنِ
قد حسَّنَ اللهُ في عينيَّ ما صَنعَتْ حتىّ أرى حَسَناً ما ليسَ بالحَسَنِ

(قصة)

المحاضر

محمد منصور الشقحاء

أخذ يعد درجات سلم المنصة .. واحد .. إثنان .. وكانت الثالثة سطح المنصة . التى تربع فوقها كرسيان وطاوله انتصب عليها لاقطان للصوت وكأسان من الزجاج الأبيض وسطل ماء صغير فوق سطحه قوالب ثلج ملفوف بفوطه بيضاء .

جلس فوق أول كرسي ثم أخذ يقلب أوراق دسها تحت إبطه وهو يتجه إلى المنصة . طال تقليب الأوراق دعك جبينه بيده اليمنى ثم أخذ يتأمل الكراسى الفارغة المرصوصة أمامه .

(إخواني .. الأوراق التى بين يدى فارغة بمعنى أصح بيضاء . خالية من أى حرف .. أيها الأخوة .. لقد نسيت نص المحاضرة .. إنما فى الذاكرة شيء مما كتبت فأرجو المعذرة .. إذا كان هناك إسقاط .. أو تقمص هفوه) .

وصمت .. توقف عن الكلام .. وران الصمت لم تنبس المقاعد بكلمة .. تحرك قليلاً في مكانه وأفرغ قليلاً من الماء في أحد الكأسين ..

(أيها الأخوة .. منذ بدء الخليقة .. والإنسان يبحث عن مكانه المناسب .. و ..... و .....)

خرج من بين المقاعد طفل في الثالثة من عمره رث الثياب يطارد شيئاً غير مرئى وأخذ صوته الطفولى الجذل يملأ القاعة .. سحنته المعروقة تدل على أنه يحتاج إلى عناية فائقة فى التغذية حتى يصبح سوياً .

شعر بالارتباك .. نهض من مكانه بعد أن توقف عن مواصلة الحديث . وهنا توقف الطفل عن الركض بين المقاعد تأمل الواقف على المنصه .. انفجر باكياً ثم اندس خلف أحد المقاعد وتلاشى .

أصلح من وضع عقاله .. ثم ثنى أطراف غترته .. وعاد إلى الجلوس .

(آسف لتوقفي عن الحديث - ضاحكاً إنما أين وصلنا في النقاط - آمل أن يساعدنى أحدكم ..)

ران الصمت .. لم تكن هناك إجابة فوريه ..

(آه ... آه ..

تذكرت . . أن المرحلة التى قطعها الانسان حتي وصل إلى وقتنا الراهن . . تجاربه فيها أكبر من الزمن . . أو استيعاب المساحة المكانية فلو تلفتنا يميناً . . وشمالاً . .)

صمت وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً ولاحظ أثناء ذلك أن هناك بريقاً فوق الجدار الذى عن يمينه للقاعة . . اخذ يدقق لمعرفة كينونته . . أخذت تصغر فتحتا عينيه وتصلبت يده اليسرى فوق الأوراق بينما ارتفعت يده اليمنى وهى تشير إلى مكان البريق الذى انفصل عن الجدار وأخذ يقترب . .

كان عينين بشريه مثلجه أخذت تراقص فوق المقاعد وهديراً حاداً يملأ القاعة عند كل حركة تصدر منها . وفي وسط القاعة توقفت العينان عن التجوال . . وأخذت ذرات من الغبار تتكون متقاطره من جميع الاتجاهات لتبرز فتاة جميلة التقاسيم في الثلاثين من عمرها ترتدى ثوباً أبيض فضفاضاً . وقد ربطت وسطها بحزام أسود وأخذت تتلوى راقصة . . ترسم بأقدامها الحافيه على أرض القاعة وبين صفوف الكراسى خطوات متناغمه . . والهدير يرتفع بين لحظة وأخرى .

وضع رأسه بين كفيه على الطاولة . . وأخذ يتأملها في هدوء . . وتخلص من لحظة المفاجأة .

(أيها . . الأخوة . .)

دفن رأسه في الأوراق التى بين يديه . . ثم غير وضع النظارة . . على أرنبة أنفه .

(عندما احترق . . هذا الكون . . بعد وجوده الأول . . حل الطوفان الذى أنقذ البشرية من النهاية المظلمه)

رفع رأسه . . وصوّب نظره إلى الموقع الذى ترقص فيه الفتاه فلم يجدها وخيم الصمت على القاعة .

(كان التكون الجديد . . . الذى معه انطمست معالم الحضارات القديمة . . لتكون حضارة جديده . . ومن خلال السياق التطورى مانحن فيه الآن . . إذ . .)

هنا ارتفع صوت سيارة إسعاف . . وهمهمة أصوات لا تميز لنساء ورجال وأطفال .

ويرتفع بكاء وليد صغير . أخذ يتموج مع صوت منبه سيارة الاسعاف ويعلوعلى الأصوات المختلطه ويتجانس مع صوت مؤذن أخذ يردد . . الله أكبر . . الله أكبر . . وواصل حديثه .

(إذ أن الإنسان لم يوفق في اختيار الطريق الحقيقى للانعتاق . . هنا كان التباين وكانت الحروب . . ومعها اندثرت أمم وثم قتل . . ثم قتل . . طفل في مهده . . طفل)

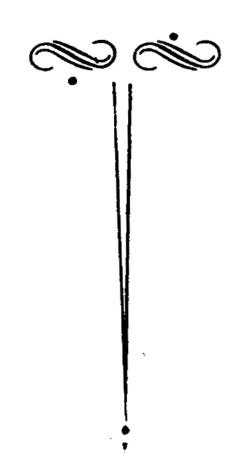
وانكب على الطاوله بقسوة الأمر الذى معه ارتطم جبينه باللاقط فانبثق الدم . مسح بكفه على جبينه وأخذ يتأمل بقعة الدم . . وأمسك بطرف غترته وبللها في الماء ثم أخذ قطعة ثلج من سطل الماء ووضعها على مكان الجرح .

(أيها الساده . . لم يعد هناك مكان مقدس بعد أن استباح الانسان ـ الآلى ـ كل شىء لم يعد في المعموره مكان امن . . أنهم يقبلون الزهور . . باحذيتهم السوداء ذات الحدوة

الحـديـديـه . . يقـول الشاعر . . الشاعرْ)
ويتحـرك الـلاقـط الآخـر نصوب على الطاوله من مكانه ، جلبه واضحه . .
(هو يمشى والموت في خواته
عاثر الحظ بانتظار مماته
شاحباً
يائساً
حزيناً كئيبا . .
واحتضار السرور في بسماته)
رافعاً كفه عند كل مقطع يقوله . .

ويتـوقف عن النطق . . فمه مفتـوح . . يده اليمنى مرفـوعه إلى مستـوى الـرأس . . وعيناه شاخصتـان في الفـراغ وخـط أرجـوانى اللون ينـز من جبينـه منداخاً على أنفه وفمه المفتوح تخرج منـه كلمات وحـروف متناثـره أخـذت تنداح نحـو المقـاعـد كسيـل لجب ، أخـذ يجرف ما في طريـقـه من أشجـار . . وناس . . وحجارة في اتجـاه غير محدد . ويـرتفـع تصفيق حاد . .

ادلهم الظـلام . . شمـل القـاعـة هدوء غريب . . وارتفع وقع أقدام تسير . . أخذ الوقت يتلاشى وينبثق ضوء من سقف القاعه أخذ يتجول بين المقاعد ويبر ز ظل انسان طويل ويصل الضوء إلى المنصـه . وإذا بالمحـاضـر يدفن رأسه بين يديه فوق الطاوله بشكل عادى كمن راح في . . سبات عميق . .



فردوس مامي

وفي زمن الحرب احمل اسمك

الى الذى عبر المتوسط مفعما بالصدف المتوهج والنار وها هو يهرم منكفئا بين اللغة / المعدن ، واللغة / الشعر ، الى محمد خالدى : شاعرا وصديقا ..

يُحَاصِرُنِي وَجْهُكَ المُتَوَهِّجُ لَحْظَةَ بَدْءٍ
لِكُلِّ المَسَافَاتِ ... كلّ المَوَاقِيتِ
كلّ التَّوَجُّس فِي حَضْرَةِ المَوْتِ ،
وَالمَوْتُ نُطفَةُ بَعْثٍ بِرَحْم انْتِهَاءْ
هُوَ البَحْرُ يَعْلُو خَرِيرًا .. صَرِيرًا .. عُتُوًّا ،
وَلَكِنْ ، لِكلّ عُلُوٍّ عَلَى القِمَّةِ / الرّمح بَعْض انْحِنَاءْ
هُوَ المَوْجُ يَجْتَازُ كلّ الحدُود
فَيُورِقُ ضَوْءٌ بِمَذْبَحَةِ الصَّمْتِ ..
يَثْقُبُ كِلْس الأَمَاسِي
فَمُدّ يَدَيْكَ قَوِيًّا ، عَتِيًّا وَعَانِقْ مَجَاهِلَ عُمْقِي نَيْنَعْ :
نَبِيا / نَبِيَّهْ ..
تَهَدَّلَ شَوْقُكَ ، يَمْتَدّ مِنْ ضَفَّةِ القَلْبِ لِلْقَلْبِ ،
يَخْضَرّ جِسْرُ المَوَدَّةِ ،

يَغْزِلَ فِي زَمَنِ الحَرْبِ مَعْزُوفَةً لِلّقَاء
تَجِنّ المَوَاسِمُ لِلْوَجَعِ الأَبَدِي
فَتَرْسُمُ بِالوَرْدِ قَبْلَ الوِلَادَةِ دَرْبَ الخَلَاص
لِكلّ الوُجُوه الأَبِيَّة .. لِلأَنْبِيَاء
أَجِيءُ ، لأَحْمِلَ إِسْمَكَ : يَسْتَنْزِفُ الخَوْف



يَبْنِي لَنَا المَوْعِدَ المُتَوَرِّمَ بِالفَرَحِ الشَّبَقِي
يُرَمِّمُ كلَّ الشُّمُوعِ الْ تُذَابُ بِصَمْت
فَيَجْعَلَهَا الوَاحِدَهْ ..
أجِيءُ إلَيْكَ ، وَرَاحِلَتِي ؟ :
أَسْرُجُ البَرْقَ خَيْلاً
هُوَ الصَيْفُ قَاس
أَجِيءُ إلَيْكَ مُحَمَّلَةً بِالظلاَل
وَبِالوَطن المُتَوَهِّجِ طِيباً
أَيَا رَجُلاً عَشِقَ البَحْرَ مِثْلي
فَسَدَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقَ الرُّجُوعِ البِحار
أَتَذْكُرُ ؟ سَافَرْتَ ذَاتَ نَهَارْ

تُصَارِعُ مِلْحَ الصَّحَارِي ..
تُفَجِّرُ حُلْوَ المِيَاهِ بِعُمْقِ القِفَارْ
وَأَرْسَلْتَ خَيْمَةَ ظِلٍّ لِقَافِلَةِ اللاَّجِئِينْ
وَشَيَّدْتَ لِلْحُلُمِ البِكْرِ بَيْتَ التَّجَسُّمِ ،
ثُمَّ رَفَعْتَ بِمَجْزَرَةِ القَحْطِ رَايَهْ ..
لأَيْقُونَةِ الفَرَحِ .. الإِخْضِرَارْ ..
وَأَطْمَعْتَ كلَّ النَّوَارِسِ لَوْزاً ،
بَقِيتَ وَحِيداً عَلَى هَرَمِ الإِنْتِظَارْ
أَجِيءُ إِلَيْكَ إِذَنْ ؟
هِيَ السَّاعَةُ / الحُلْمُ دَقَّتْ ..
هُوَ الإِبْتِدَاءُ :
انْتِهَاءُ المَسَافَاتِ / إِلْغَاءُ كلِّ المَوَاقِيتِ / فَكُّ الحِصَارْ
دَعِ البُرْجَ يَنْشُدُكَ ، بُرْجَ الأَحَاجِي
وَحِنَّائِي الآنَ تُزْهِرُ بَيْنَ شُقُوقِ يَدَيَّ
تَدُقُّ الطبُولُ ، هُوَ العُرْسُ عُرْسِي
دَعِ الرِّيحَ تَأْخُذُ شَكْلَ التَّفَجُّعِ .. تَرْحَلُ عَبْرَ المَخَاضِ
إِلَى قِمَّةِ الإِنْسِحَاقِ / العُبُورِ / التَّحَدِّي
تعدَّد نسلي وَإِنِّي التَّوَحد أرضا ووجها ونسغا
أجزَّ المَسَافَاتِ ، اتيك فِي زَمَنِ الحَرْبِ ، مَجْنُونَةَ الإِشْتِهَاءْ
وَاتِيكَ ، أَصْهَلُ كَالبَرْقِ صَوْتا يُفَاجِيءُ
أَهْطلُ بَيْنَ الضُّلُوعِ – المَرَايَا – التَّلَهُّفِ لِلْوَطَنِ / البُعْدِ :
إِنِّي المَطرْ ..
هُوَ الشَّوْكُ يَمْلأُ وَجْهَ الرَّصِيفِ ،
فَعَانِقْ دَمِي فَوْقَ هَذَا الرَّصِيفْ
عَلَى الشَّوْكِ يَأْخُذُ طَعْمُ العِنَاقِ الجَحِيمِي شَكلَ القَدَرْ !
إِذَنْ فَانْتَظِرْنِي عَلَى شُرفَاتِ التَّمَنِّي اليَقِينْ ،
أَجِيءُ إِلَيْكَ مَعَ الفَجْرِ دُونَ جَوَازِ سَفَرْ !

ف ٠ م (تونس)

« قصة »

الرجل المتعب

عبدالله عبدالرحمن العتيق

إلتوت أعناق الناس نحو صراخ الرجل المتعب في القرية بعد اشتداد خدر النعاس به فصخب للانعتاق من وطأته . . والسوق رحيم يفسح صدره له ليتبوأ ظلال الدكاكين على أرض ترابيه . .

هذه قريتي أعود بعد السفر المضني والغربة السوداء والتسكع على طرقات المدن . . السوق قديم وشمس ذهبية والباعة جلوس في (المشراق) يستدفئون بالشمس المشرقة . .

* * *

قبل وصولي لمدرسة الطفولة ! . . كانت تتراكم أمامي الأقمشة الصارخة والبطيخ والطماطم والأوانى والأعلاف والأقط والسمن البرّي والمراوح اليدويه في الصيف تلعب بها الأيدي داخل الحوانيت الضيقة جالسي القرفصاء أو ممددين وقد استفاقت الثرثرة . . والحقد الأبيض بدأ يسيل من شفاههم السمراء المتشققة . . « بعد فراق طويل ممعن فى الغربة العادية . . ألتقط سيارتي فى صباح باكر وانطلق نحو طريق طويل . . أتردد ثم امضي . . فى مدينة البلادة والسأم الطرق موصدة أمام الفرح . . وعلى الشارع (نتمنى لكم سفراً سعيداً) . . تذكرت طفولتى . . فانطلقت نحو صاحبي . . » .

* * *

التفّ حولي أهل القرية مرحبين بامتعاض ! . وتوالت الدعوات (للشحم) فأعتذر : والله قاصد . . (أرددها لكل شخص يدعوني) .

أقف أمام الرجل المتعب . . لم ينهض ليصافحني . . بل طرد النعاس بصرخته وأنا أستجدي عواطفي المتبلدة وأشحذ بقايا عاطفة نبيلة ولم أستطع السيطرة على قلب يخبّ بفوضى وأنفاس تنتشر كالعناكب في صدري . . وقف صاحبي أمامي كالنخلة المائلة . . التقطت يده وصافحتها وهو ساهم لا يتكلم وعيناي تتجهانه بصمت : ماذا بقي من الأسطورة يالعين ؟! . .

* * *

شماغه جديد متسخ بالطين والدهن والتراب . . دعك أنفه بطرفه وعاود الخطو المضطرب . مثقل بالحزن . . توقف ، عيناه فى كل الإتجاهات بعاديه تدور وورقة صحيفه أوكتاب لوح بها الهواء . . اصطدمت بقدمه إلتقطها وحدّق بها بعنف ثم مزقها بشراسه ثم اختطف الأخرى ومزقها وصرخ بكلمة لم أفهمها . . استدار ووقف قريباً مني فإذا وجهه أمامي مليء بالبهاق . .

* * *

القرية الساكنة كبد الصحراء متقشفة خشنة وعلى إيقاع دفها الرتيب ولحظتها الآسنة . .

مات أبو متركٍ الذي يمسك بأذني ويطاردنا بعصاه الغليظه لندخل المسجد للصلاة . . ومسفر الملقب بأبي دنّان ولا أدري لماذا . . ذهب (ليخرف) النخله عندما جاءه ضيوف من الرياض ولما صعدها يمتلىء رجوله فقأت عينه إحدى سعافها الحادة وسقط أعوراً . . كريم عين . .

و (جريّه أم الخلقان) لم تمت بعد لا زالت تطوف البيوت . . ويلحق بها الصبية ولا تبالي تدخل البيوت بتعقل وجدّه تحادثهن وعندما يضيق عليها الأولاد الخناق تبكى وتثرثر وتنوح . . فيكفون عنها . . وقد شاع أن شباباً من أهل القرية . ذهبوا بها بعيداً . . مما أثار عندي غثياناً لبقية الحكاية ! . . (جريه) ليست كأي جرية أخرى ! . تجمع الثياب والأشياء القديمة ثم تتلفها أو تفقدها . . تهذى بأحاديث لا تترابط . . ولأنها فاقدة الأهليّة أمر القاضي بإرسال طفلتها إلى الملجأ !! . .

* * *

بعض المنازل تملك خزان مياه يصب به (الوايت) والكثير يذهب إلى الحنفية الحكوميه . . الفتيات الصغيرات والأولاد يذهبون ومعهم الأواني و(الجالونات) ليحصلوا على الماء الحكومي قام وانطلق ليكفى المرأة العجوز معاناة الوصول الحنفيه ومعه (الجالون) كانت أعين كثيرة من خلف البراقع تحدق به وحده وعندما ينظر إليهن ، ينشغلن بالمياه وتتيه أعينهن مع صراخهن المفتعل . . وقد فاض صبرهن من الانتظار . . واشعر بالغيظ والغيرة . . ويكف الرجل المسن قدميه في السوق عند مروره منه واللثام لا يماط عن وجهه . . وعيناه تشعّان رجولة ووسامه . . تصرُّ أمه إصراراً غريباً على هذا بأغلظ الأيمان ألاّ يميط (اللطمة) . . كاللغز حتى صار حديث أهل القرية العادي . . من حانق . . ومعجب . . وشامت . .

* * *

وأذكر كلما لاح برق من بعيد ضحك عالياً . . فإذا رحلت السحب بقي يدور ببطء وسأم ينتظر المطر . .

ولما عاد من الحنفيه لمحته يوماً يتمثّل (موسى القوى الأمين) عندما زحزح الحجر عن الفتيات ليملأن الجرار ويتقدمهن لئلا يعصف الهواء بثيابهن وتنكشف أقدامهن أمامه . . شعرت بالحنق والضجر ربّما على شرف يدعيه .

وأذكر . . كان لعودته قدوم مطر على قرية الحر والغبار . . عندما زحفت سيارته تشق (الطعوس) ويحمل بيده وثيقه التخرج . . متعباً لاهثاً . .

وأمواج الغثيان ترتخي وتصعد في داخله .. لم تعتليه قروح الغربة ولا هزه مشهد البيوت الطينيه المتعرجة يحمل شرارة على شدقه .. بسيطاً ليناً باسماً كالصحراء تماماً .. وبقامته المديدة وسط الهجير جاء ينتفض لأمه قائلاً : دثريني .. وأخذ يرتعش .. ثم نهض يتقيأ وعاد لفراشه الممدد على الحصير الأخضر .. وصراخ أمّه يتصاعد (تراجيدياً) .

- « سوّوها » فيه عيال « ..... »

وفى اليوم التالي يخرج ليستقبلني في الباب باسماً وقد خاب ظنُ أمه ويده مضمخة بالسمن أخرجها للتومن الأرز واللحم مدَّها إليّ وصافحت ساعده .. ثم حدثني في (الدهليز) وهو يلعق مابقي في راحته من دسم وحبات أرز وكتفه مستند على الجدار (المجصَّص) قال لي :

- الوعد في الشعيب في نفس الغار ..

قالها بصوت متكسّر .. وأدركت شوقه للبرّ والقرية .. وأن الجذور تستفيق في صدره عذاباً وحباً ..

***

جئت الآن وبيني وبينه صحراء نجديه ..

- حدثني عن غربتك ؟ .

خبطت راحته المنفرجه الرمل وكان سريع الغثيان

- هناك لا ترى أحداً ولا يجدك أحد كما الوطن هنا الأبصار شاخصة نحوك ليس للقرية همٌ سواي وسواك .. هاأنذا آتي للبسطاء معتذراً أناديهم لحضني الفسيح ..

لكنه وجد الخرس .. منتشراً والصّمم .. سكون وصوت ماكينة الري والعصافير صبحاً وفي الليل .. نواح البوم .. وعيون تلاحظ ببلادة كل شيء وساعة لحوح تدق دقاً رتيباً .. قرية نائمه وسأم وتشبث بمكان واحد ..

(كان يتلفظ بعبارات جزاف) ! .

***

في مكانه في باطن الوادي الجاف الرملي .. الذي يشطر القرية شطرين تسيخ قدماه فيه .. في العصر .. كان ينظر إلىّ بصمت وأنا أحادثه عن الأشياء الجديده .. اقفلت باب السياره ثم جلست معه .. أحادثه ..

عندما انتفضت وتحولت بعض المنازل الطينية الآن إلى عمارات صغيره وفلل جديدة في لمح البصر وسرعان ما اتسخت بعبث الصبية الجدران .. وبدخول البقر والآبل الفلل والأغنام تأوي إليها كل مساء بعد رعي وتجوال في المساحات ..

كئيب لم تلتمع عيناه يوماً بهذا المشهد لا بغناء أو فرح أو بكاء ..

كأنه يشاهد وجهه لأوّل مرة وقد امتلأ بالبهاق ! .. رآه في المرآة لم يتحرك في داخله ساكن ! .. كالقرية تماماً ..

بل مكث في بيته بصمت وبرود .. يتلو صحائف وكتب .. ثم يذهب للتلاميذ صباحاً متوتراً يقف وقفة غريبة وقد أماط اللثام عن وجهه وقال :

- يا أولادي لقد اخترتكم على أي طموح أو منصب وأنا القادم من بلاد الغربه لأبني داخل عقولكم أحصنة وقلاعاً وأضع شموساً وأنفض أتربة عن عيونكم العمشاء ..

وتضاحك التلاميذ وقد تلفتوا إلى بعض وقد حسبوها

دعـابة . . وشعر باكتئاب أعمق وخيبـة . . تجمـدت الكلمات على شفـتـيـه بلون أصفـر واستقبله المدير بفتور وجهامه .

- بلغنى أنك تتحدث لهم بشيء لا يمت للواجب بصلة . .

* * *

أحياناً قفص وأحياناً أفقها لا نهايـة له . . في القـرية لا وظيفة تدغـدغ حلمـه الـوردي ولا ضلال . . والمـلل سيـد المـوقف . . وبـدأ المسخ يقلب الاشـيـاء فالـوجـوه تحمـل أخـرى . . ومن السأم هجـران الفـراش أياما والنوم خارجاً . . قارعـة الطـريق أو باطن الوادي الـرمـلي وكلما اشتـدت رغبتـه للطعـام إذا بالجوع يتوارى بعيداً وكـلما مكـث في مجلس خطـه نهض فزعـاً فتـعلق الأبصـار به . . يهم بعمل شيء غامض لم يكتشفه . . يتوتر ثم يعود لمكانه وبـدأ ستـار كثيف يعزلـه عن الآخـرين ! . . والحـديث مع ذاتـه المعذبة صاخب لا ينقطع والناس تسأل عن صمته الغليظ الطاري‌ء .

- كيف حدث ؟

* * *

سقـط اللثـام عن وجهه . . وتـدلىّ فكه فانزلقت غترته عن كتفيـه . . يتحـرك ببـطء . . أدْمَن التجـوال ومـا عاد ينـاجي أمّـه بشغف ويجاملها في الحديث لترد عليـه بشـغـف وحمـاس وحـب . . تـتـحـسـر على القدَرَ . . ترك اللثام . . وتوقف بحده :

- أهـل القـريـة إمـا حـاسـد أو شامت . . عين (شـافتـه) ومـا صلتَّ على النبي ! .

ولكنـه يئن أنـاة مكتومة تحوم في صدره . . وتخـرج من أنفه . . نظرة عتبى متسائله . . منهم :

- اخـتـلال . . حب . . عين . . هوى . . إحبـاط . . شهوه لبلاد الغربه . . أم . . أو ؟

يعـود للمنـزل الـترابي في العتمة محملاً بالوهن . . ويقفل باب غرفتـه (بـالمـزلاج) وينكب يقـرأ بصمت . . ويخرج مطبق الشفتـين وتكشيرة . . شفتـاه قرمزيتان كأنهما سلختا . . وبقع بيـضـاء على وجـه بالـغ السمـرة . . يستـولي على قلب العجـوز الهلع . عاد . . قفل الباب وأمعن في (السرحان) ثم عاد للتجـوال في أرض القـريـة . . تهز العجوز رأسها بإيمان متقين .

بقـي يتـلوّى ويئـن مما في داخله ! . ولم يهتـز إهـابـه من البـهـاق . . ومكثت الأشيـاء الغـامضـة في الـداخـل (لأزقه) تشغله عن خارجه . .

(حديث تلوكه الالسن)

* * *

صرخ الإمـام مع المـؤذن ليسمعانهم بإحتجاج وأنكار . . على تخلفه عن الجماعة :

- الناس (يتظاهرون) من المسجد مصلينَ وهو قاعد على حاله . . ثم جرّوه من جيبـه وجلدوه أمام طائفـة من النـاس وهـو يتمنعّ ويحـاول الانعتـاق . . وعينـان تختلجان بصمت . . وبقهر . . ثم بقي على سكونه وشحوبه لا يثير حراكاً . . في السوق حول المسجـد . ثم أخـذ جسمه يهتز من بكاء عنيف بدأ يغمره . .

* * *

الـرجـال يركض في الوادي . . يركض ضاحكاً . . وبيـده المرفوعة (عسيب) نخلة طويـل ربـط بطرفه قطعة قماش لها لون غريب . . أخـذ يركض ويجري . . وتباكت القريه ذلك الـوقت . . والصبـايـا أشدّ لوعـة . . وقد طال انتظارهن له

عمّن سيختار ؟! . . وتاهت نظراتهن الخرساء عن الرجل المتعب نحو شباب آخرين بصمت . . وامتطى سيارته أيضاً وقد ركز جريده النخل وبرأسها القماش وأخذ يصرخ ويتكلم كلاماً جارحاً بذيئاً . . ويشيل الشتائم من فمه لأهل القرية والصبية تركب وتتشبث ظهر السيارة وتلحق به وتضحك بخوف . .

* * *

قالت المرأة العجوز . .

في هدأة الليل طرق الباب طرقاً غريباً . . وهرع ليفتح ثم عاد لي مسرعاً وأرسل نظرة . . لا أدري ما لونها . . ثم صرخ :

ـ في أمان الله يمّه . .

غاب عن القرية أشهراً لا يعرف له أثراً وتركني خالية القلب والعقل . . والكلام دار على الألسن الدبقه . .

ـ تاه في الشعاب . . اختطف . . ذهب للعلاج . . ذهب ليعمل في المدينة عاد لبلاد الغربة .

حتى جاء يذكرهم بهيئته . . فاستقبلته القريه بترحيب حذر . . لكنه عاد منهكاً منهاراً . .

أضحيه أريق دمها وبُكى عليها . . جاءت العجوز بلا عباءه تركض بكل الاتجاهات تبحث عنه .

* * *

طرقت الباب

ـ أهو موجود . . ؟ . .

تلمّظت ومصت شفتيها .

ـ الناس أكلوه بأعينهم . (والله العظيم)

ولم أجبها بشيء . .

اقتربت مني تخنقها عبرات

ـ كأنه ما يعرفني . .

ثم همست لي في الدهليز . .

وأنا أخفي تذمري . .

ـ دواء العين (وأنا خالتك) يكتّف (الناصِل) ويصلّى عليه حياً مامات . . أو يموت ليبرأ المنصول في الحال . . أو نأخذ من بقاياه شيئاً يستعمله المصوّب أو يأكله . .

ثم نظرت إلي نظرة شاذه . .

ـ تجيء اليوم عندنا . . تتغذّى مع (خويّك) عله يشتهى الأكل معك . . تجيء به معك هذا الحين . . تلقاه لا يبتعد كثيراً . .

وما إن دلفت المنزل وفرحت بنا . . تقدمتنى تتوكأ خشبة (سمر) . . ناولتني التمر ودلة القهوة . . جلسنا في باحة المنزل أستند إحدى أعمدته فوق (مطرحة) على حصير . . وشرعت اكل التمر وأصب القهوه العربيه . . لي وله . . وأتجاهل اشمئزازاً . . وهي بقربنا تراقب . . وهممت لملاطفته بالنظر بتوتر إليه . . وأنتظره ليرفع بصره نحوي أفكر بما سأبدأ . أبالذكرى . . أم الأخبار . . أم الخال . . أم الطموح . . نظرت العجوز في وجهي نظرة غريبة ثم همّت وركعت تجمع نوى التمر الذى لفظته بعد أكلي له . . أصبت بإحباط شديد ومهانه . . وخرجت وقد أدركت في الأمر خداعاً . . اندفعت خارج المنزل ولم تعرني التفاتا . . ولم أتناول الغذاء ، غدرت بي لتصنع مني دواء لإبنها . . ضحكت بمرارة وأنا أجتاز ممرات الحارة الضيقة (والمجابيب) حاولت إيجاد تفسير لسهومه الطويل وكل ورقة يمزقها بضراوة ثم يصرخ . . والركض السريع . . وجريد النخل . . والصراخ في وجود رجال،

القرية . .

وشباب القريه يؤكدون أن ما قالت أمه ربما يكون صحيحاً !. متفوّق . . ويعد للدراسات العليا . . وأن العين لم تصب شكله بل عقله !. حاولت عبثاً إقناع نفسي ؟!. بما يدور وسط القريه الآمنه فماذا بقى من الواجب ؟! . .

* * *

ليس مجنوناً . . لم يهتز لرؤيتي . . ولم أحدثه كالعاده . . لا مناص « من التردد في ذلك . . إنها الخيبة والاحباط . . غداً هو السبت !. أمه تداهمنى لأجل نوى التمر . . ياللخيبه على قطع المسافه . . أنا ما جئت لأجله . . القرية أقرب مني . . من هو الذى دفعه من ظهره إلى هوّة الجنون ؟ . . هو أصرّ على ذلك . . لم يتعرَّى بعد . . بركان يثور ويخمد . . كلما مرّ بي زاد يقيني ماذا يريد مني ؟! . . ياللخيبة . . الرجل متعب . . أكيد . . لم يرفع رأسه لي . . أنا ما قتلت أحداً . . رجل متعب . . ليس هناك جنايه . . صاحبى رجل متعب . . »

وضعت الشريط . . وزدت سرعة السياره . . وارتفع صوت الأغنيه في جو السيارة . . ماذا يريد ؟! .

واعتدلت السيارة نحو شارع طويل . . من بعيد على قارعة الشارع يلوحان بأيديهما لي بالتوقف وإركابهما معي . . أعرفهم جيداً . . من شباب القريه . . طلاب . . أسبلت الغترة . . وحاولت مواراة وجهي عنهما . . ماذا يريدان ؟! السيارات كثيره . . وبقيت وحدي . . وأغنية جذلى . . وشارع طويل .

لقد تركت عفراء قلبي كأنه جناحا غراب دائما الخفقان

الا لعنَ الله الوشاة وقيلهم فلانة امست خلة لفلان

ويسألني عمي ثمانين ناقة ومالي ياعفراء غير ثمان

فياوراثي مالي وياطالبي دمي خذا بدمي من اذيشاء شفاني

" عروة ابن حزام"

قصيدتان

لشاعر الغزل بشارة الخوري « الأخطل الصغير »

جفنُهُ علمَ الغزلْ

جفنُهُ علَّمَ الغزلْ ... ومن َالعلمِ ما قتلْ
فحرقنا نفوسنا ... في جحيمٍ من القُبَل
ونشدنا ولم نزلْ ... حُلُمَ الحبِّ والشباب
حُلُمَ الزهرِ والندى ... حُلُمَ اللهوِ والشّراب
هاتها من يدِ الرضا ... جرعةً تبعثُ الجنون
كيفَ يشكو من الظّما ... من لهُ هذهِ العيون
يا حبيبي ، أكلّما ... ضمّنا للهوى مكان
أشعلوا النارَ حولنا ... فغدونا لها دخان
قل لمنْ لامَ في الهوى ... هكذا الحسنُ قد أمر
إن عشقنا . . . فعذرنا ... أنّ في وجهنا نظرْ

كفاني يا قلبُ

كفانيَ يا قلبُ ما أحملُ ... أفي كلِّ يومٍ هوىً أوّلُ
أيخلُقُ منك جديدُ الهوى ... فؤاداً من الشكرِ لا يعقل
له عثرةُ الطفل حولَ السرير ... ودمعتهُ البكر إذ يُعوِلُ؟
أفي كلِّ وجهٍ لنا مرتعُ ... وفي كلِّ ثغرٍ لنا منهلُ
كفى نهماً ! انّ يفرُّ الجمالُ ... وترحلُ أنتَ ولا يرحل
عذرتُكَ يا قلبِ ،من الهوى؟ ... أنتركُهُ بعدَنا يذبُل
سكتنا ، فما غرّدَ العندليبُ ... وتبنا ، فما صفّقَ الجدول

لقـــاء

لحكيم بن عكرمة

تقولُ بُثَيْنَةُ إذْ أنكرتْ قُنُوءاً من الشعَرِ الأحمرِ
برأسي كَبِرْتَ وأوْدَى الشبابُ فقلتُ مجيباً لها أقْصِري
أما كنتِ أبصرْتِني مرَّةً لياليَ نحنُ بذي جَوْهرِ
لياليَ أنتُمْ لنا جيرةٌ ألاَ تذكرينَ بَلَى فاذْكري
وإذ أنا أغْيَدُ غضُّ الشبابِ أجُرُّ الرِّداءَ معَ المِئْزرِ
وإذْ لِمَّتي كجَناحِ الغُرابِ تُرَجَّلُ بالمِسكِ والعَنْبَرِ
فغيَّرَ ذلكِ ما تعلمينَ تغيُّرُ ذا الزَّمنِ المُنْكَرِ
وأنتِ كلؤلؤةِ المرزُبانِ بماءِ شبابكِ لمَ يُعْصَرِ
وقد كان مضمارُنا واحداً فإني كَبِرْتُ ولم تكْبَرِي (١)

---

* شاعر إسلامي

(١) هذا الختام الذي يختم به الشاعر قصيدته فيقول لمحبوبته إنه كبر على الأيام وإنها هي لم تكبر ، فيه من لطف الحسن وسلامة الذوق والإمعان في المجاملة ما لا يقول أحسن منه فتى رقيق راق في هذا العصر الحديث الذي وصل الناس فيه إلى أعلى درجات الرقي والحضارة والتأنق في الكلام .

ملاحظات حول جدل ساخن

العقل والواقع الجديد

إدجار موران

«العقل لن يجد نفسه الا حين يقدم على الغاء ذلك المطلق المزيف الذي هو مصدر كل هيمنة عمياء.»

(أدورنو - هوركهايمر : جدلية العقل)

«مهمتنا أن نوسع عقلنا حتى يتمكن من أن يدرك فينا وعند الآخرين ما يسبق العقل وما يتجاوزه».

(مارلو بونتي : إشارات)

خلال مرحلة طويلة، بدت العقلانية الانسانية، التي كانت احدى النتائج الكبرى للثورة التنويرية، وكأنها تجسّد التقدم والتحرر الحقيقي. وكان ذلك واضحاً من خلال صراعها المتواصل والعنيف أحياناً ضد الأساطير والأديان. كما أن رغبتها في الانتشار على نطاق واسع، وحتى في تلك الأماكن الضائعة والخفية، جعلت منها ركيزة قوية يعتمد عليها المسحوقون والمظلمون والمستعمرون لاستعادة حريتهم وكرامتهم وانسانيتهم. ورغم ذلك فان المبادىء التي دعت اليها العقلانية الانسانية، وسعت الى نشرها بين الشعوب بحماس شديد، ظلت «مجردة»، إذ أنها لم «تحترم» الفروق بين الثقافات. وهو ما أدى مع مرور الزمن، الى ما يسميه البعض الآن «بالامبريالية الثقافية»، تلك التي تلغي وجود الثقافات الصغيرة والبدائية بل أنها تحتقرها، وتسعى الى تدمير قيمها ومرتكزاتها.

لقد تحدث «هيدجر» Heidegger عن ذلك العنف الذي يختفي وراء إنسانية العقل الأبوية. فالطبيعة مطالبة دائماً بأن تمثل أمام محكمة العقل، وأن تخضع لمختلف التجارب. والعلم، عوض أن يغمر الطبيعة بحبه، يدمّرها ويسعى جاهداً للسيطرة عليها سيطرة كلية. والعالم بأسره محكوم عليه بأن يخضع للتكنولوجيا بدعوى أنها قادرة على توفير السعادة الحقيقية.

ورغم أن «هوركهايمر» و «أدورنو» هما على طرفي نقيض مع هيدجر، فانهما يصلان الى نفس النتائج بخصوص مسألة نقد العقل: «إن العقل يتعامل مع الأشياء كما لو كان ديكتاتوراً. وهو لا يعترف بالأشياء الا حين يحس أنه قادر على أن يتلاعب بها.». ويكفي أن يتحول الناس الى أشياء لكي يواجهوا نفس المصير ويخضعوا خضوعاً تاماً لديكتاتورية العقل الحديث. وعندئذ يحدث الاكتمال التكافلي لفكرة النظام والكلية في ظل الكليانية الشاملة. ويقول هوركهايمر وأدورنو: «العقل أكثر كليانية من أي نظام». ولتوضيح هذه الفكرة، أقول بأن الكليانية لا تكتمل الا حين توحد بين مكوّنين: مكوّن ديني/صوفي (مخفيّ)، ومكوّن عقلاني / معقلن. لكن قبل أن أتحدث في هذه المسألة، لا بد أن أتفحص من جديد مسألة العقلنة التي هيمنت من خلال التقنية والبيروقراطية على جميع مجالات الحياة. ان مبدأ العقلنة هنا يربط بين النظام/الكلية/الدقة وبين فكرة الاقتصاد والانتاج والفاعلية.

وقد توصلت البيروقراطية ، اعتماداً على الدقة العقلانية ، الى أن تتطور بشكل مخيف ، حتى اننا أصبحنا نحس جميعاً بثقلها تماما مثل ذلك المواطن الغريب ، جوزيف ك . الذي جعله فرانز كافكا بطلاً لقصته «المحاكمة» . إنها ليست هناك في الدواوين ، والوزارات ، والادارات ، إنها في أعماقنا ، وفي تلك المناطق الخفية من ذواتنا .

أما الصناعة فانها أصبحت تنظر الى الأشياء من زاوية واحدة : هل هي صالحة أم غير صالحة . وداخل المعامل تحوّل البشر الى مجرد آلات تقوم بنفس الحركات لساعات طويلة من أجل «ضمان الفاعلية في مجال الانتاج» . غير أنه بمرور الزمن ، تبين لنا جميعاً أن هذا الأسلوب لا يمكن أن يضمن النتائج المرتقبة . بل وربما يزيل الرغبة في العمل نهائياً . ولهذا السبب أخذت العقلنة منعرجاً آخر . وأخذت تطبق أساليب جديدة مثل تشريك العمال في المرابيح ، وفي التسيير بهدف ضمان الانتاج والمحافظة على النظام . ونعتقد أن مثل هذا الأسلوب الجديد في مجال العقلنة أكثر إيجابية ، لأنه أكثر إنسانية .

ويمكن القول ، أن التصنيع ، والتمدّن ، والبيروقراطية ، والتقنية ، تطورت كلها حسب القواعد والمناهج العقلانية . وقد وقع استعمال الأشخاص كما لو كانوا مجرد أشياء لا تصلح إلا لأغراض تخص النظام والاقتصاد والفاعلية . غير أن هذه العقلنة لُطِّفت أحياناً بالانسانية ، وبلعب القوى السياسية والاجتماعية المختلفة . هذا بخصوص الغرب . أما في المناطق الأخرى من العالم ، أي تلك التي نسميها البلدان الفقيرة أو المتخلفة ، فانها إنزرعت مثل السرطان والتهمت الكثير من القيم .

من هنا يمكننا أن نتابع السير العملي للعقلنة :

١) يمكن أن تكون العقلنة إنسانية ، حين يتعلق الأمر بتنظيم المجتمع ، وتسهيل حياة البشر ، وتطبيق تلك المبادىء التي يطلمحون اليها مثل الحرية والعدالة والمساواة . وهي «إمبريالية» حين تداهم العالم بأسره وتضاعف من شقاء الشعوب التي تناضل من أجل استقلالها ، والمحافظة على ثقافاتها ، وحضاراتها .

٢) وتكون العقلنة كليانية حين تنفصل عن الانسانية وعن النقد المناهض للدين ، وتتحد مع أسطورة كبيرة وعميقة . وعندئذ يمكن أن نرى أن العقلانية والعقلنة جدّ مزدوجين وذا وجهين : وجه تقدمي وآخر رجعي . غير أن الوجه التقدمي مرتبط بالعقلانية / الفكر النقدي / الانسانية . واذا ما انفك هذا الرباط فان العقلنة تبدو عارية ، وعندئذ يمكنها أن تلتحم بالقوى السوداء لكي تؤسس الكليانية التي كان «هوسيرل» Husserl يسميها «عقلانية الاهرامات» .

هل ثمة عقل جديد ؟

ان العقل الجديد ، اذا ما وجد ، لا يمكن أن يكون الا معقداً ومسكونا بالشك . أي أن يتأسس على العلاقة القوية والدائمة ، وفي نفس الوقت ، المكملة ، والمعتمدة على المنافسة والتضاد ، بين العقل واللاعقل .

١) ليس هناك «العقل الالــــه » ، أي العقل المفارق والمطلق والمكتفي بذاته . إن مثل هذا العقل الخالص ليس سوى أسطورة مغلوطة . ومهمتنا الآن ، أن «نستكشف» الجانب الأسطوري ، الشاسع والعميق للعقلانية .» (اكسيلوس: آفاق العالم) . عندئذ فقط ، يمكن أن نكتشف أن العقل هو بحد ذاته أسطورة رغم أنه يدعو الى محاربتها وازالتها من أذهان الناس .

٢) إن اللقاء بين العقل والموضوع يحدث صدىً ما يؤدي الى يلغي كل واحد منهما الآخر . ومن الأكيد أن العقل الكلاسيكي عاجز عن قبول الواقع الذاتي . ولهذا فانه لا يستطيع البتة إدراك تلك الذاتية المستترة تحت العقل .

٣) هناك «تدمير ذاتي من جانب العقل نفسه» (هوركهايمر - أدورنو . فحين يرفض العقل اللاعقلي الذي يجسد المعقد ، وأيضاً الوجود والحياة) ، وحين يخفي لاعقلانيته نفسها ، وحين يطوّر جانبه العقلاني ، العنيف والجوري باستمرار

فانه في الآن نفسه يقوم بتقوية وتنمية لاعقلانيته نفسها التي تصبح فجأة جنوناً وفناء .

٤) من هنا يمكن القول أن هناك تحولات في العقلانية . هناك لحظة ما يصبح فيها العقل واهماً ومختلاً ، واللاعقلي عاقلاً وحكيماً .

٥) ليس علينا فقط أن نكتشف جنون العقل . علينا أيضاً أن نستكشف عقلانية الجنون . ان موضوع الحكمة / الجنون معقد ولكنه ثمين بالنسبة للفكر الغربي منذ الاغريق الى ايرازموس Erasmus .

ويكفي أن حدث ذلك الانفصال المؤلم في العقلانية الحديثة لكي تتعارض هذان العبارتان . ولا بد من التذكير من أن اللاعقل لا بدّ أن يلعب في مجاله نفس الدور الذي لعبته الفوضى في العلم الجديد (Scienza Nuova) . أي أن يكون أساسياً في كل حركة تجديدية وفي كل شكل من أشكال الخلق والابداع . «ان اللاعقل هو المصدر» قال نيتشه Nietzsche . وهو يوضح : «في كل مكان تقريباً ، يكاد الجنون هو الذي يفتح الطريق أمام الفكر الجديد ، ويرفع المنع عن عادة ما أو عن خرافة محترمة» . ومن قبله قال أفلاطون Platon : «إن الجنون هو الذي جلب كل الخيرات تقريباً الى الاغريق» .



باول كلي : إدراك الهدف

طوفان يأخذ أحلام القرية

محمد علي قدس

قالوا . . (لا تقصص رؤياك على أحد !)

زاغت الأعين ، تجوس فى عتم وفراغ !! الريح تنذر بالطوفان . اتهم بالعتاهية ، أجمعوا على أن مساً من الجنون قد أصابه . صار حكاية تُحكى . . وشخصية تُنسج لها الأساطير ! إنطلق من الخيال وتجسد بالوهم .

قالوا . . إن أجمل مافي عباراته . . على صدقها وعضويتها ، أنها إلى قلب نافذة بلا هوادة . لم تكن فصاحته وبلاغته مستغربة . كان يدمن على القراءة . قرأ (ألف ليلة وليلة) عشرات المرات ويحفظ معلقات الشعر عن ظهر قلب ، ويعيد سرد مقامات الهمدانى والحريري على نسق وتعبير مغاير نمط يميزه بين الناس . فقد كان ينسج مقاماته لتعبر عن حال أهل القرية وما تعانيه . . ورغم إتهامهم له بالعتاهية ، فهم يؤمنون بحكمته وبلاغته

* * *

يرفض البعض حكايات المعتوه . يعدونها أحاديث خرافة . خيال المجنون أوسع من العاقل . تتردد . . حكاياته بينهم . يلتقطها البعض بلهفة ، ويمر البعض بها مروراً عابراً ، أما من كانت تقلقهم تلك الحكايات وتساورهم الشكوك بشأنها ، فقد باتوا يرتقبون حدوث أشياء تهدد القرية وأهلها . ظل المعتوه يكرر حكاية ويرددها حتى مل الناس سماعها . (شجرة اليم) أيُّ شجرة يمكن أن تنسج لها الحكايات والاقاويل !!؟ هى أقدم شجرة فى بطن وادى القرية . جذعها يأخذ مساحة كبيرة . تتدلى فروعها من عل لتلامس أرض الوادى وتسيخ فى أعماقها بفظاعة ووحشية .

* * *

أفاق أهل القرية على صراخ ونحيب . كان قرص الشمس البرتقالى يسقط خلف الجبال في تؤدة . كثيرون هم الذين ارتعدوا لسماع ذلك الصوت المشؤوم . بكت العجوز حليمة . نتفت شعرها . لطمت خدودها في جذع . جثت على ركبتيها تحثو التراب . . تندب شاة لها .

(الشجرة قتلت شاتي . . رزقي ورأس مالي ، يالفداحتي . .

واحر قلباه !! وا أسفاه) .
رددت العبارة بصوت مذبوح . . نثرت في الهواء غطاء رأسها الاسود . عيون الناس منصبة اليها . .
(صدق المجنون وكذبتم . . قد حذرنا بحكاياته وكذبناه)
. . أخذت تولول بقلب مكلوم . . !
. . راحت تثرثر . . كما لو كانت البسوس التى أشعلت نار الحرب بدم «غنمتها» . .

* * *

نظرات الشيخ حائرة . مبثوثة في كل الوجوه .
أطال النظر في وجه حسين ابن العجوز . كان وجهاً يبرز فيه عظامه . . له عينان جاحظتان . بدا وكأنه يبيت أمراً يهدد القرية . يعرف طيشه وعنفوانه .
إمام المسجد . . غارق في صمته . شفتاه تتحركان لدعاء تقرأه في عينيه . تبادل هو وشيخ القرية النظرة تلو النظرة .
(نخشى أن يعقب الهدوء الذى ران على قلوبكم . . عاصفة تأكل الاخضر واليابس)
إهتز جسد امام المسجد لمقالة شاب أرعن مفتول العضلات ، وحملق شيخ القرية بعينيه ، عرفه يلقى الكلام على عواهنه ، يلوك كلماته . . كما يلوك عود الأراك بين شفتيه الغليظتين . لاحظ الجميع تعاطفه مع ابن العجوز . انه لا يكلف نفسه عناء البحث في أعماق المسائل . تغريه الظواهر . . والعنف لغة . . تسبق تفكيره . . !!
طغى ثغاء الغنم . . ونهيق الحمير . . وخوار البقر . . على ثرثرة وجدل أهل القرية . . صاح الشيخ معلنا . .
(سنعقد الليلة مجلس القرية . لابد من حضوركم جميعاً . لن أغفر لمتخلف مهما كان عذره . غياب فرد منكم يفسد مهمة التفاوض !!)
تبادلوا النظرات . . تحركت شفاههم دون كلام . .
تحركت الأيدى ، لتمسد على السِّبال . تهرش بدافع التفكير . . أو بشكل لا إرادى ، وأخرى تشابكت فى إرتعاش .
بدت العجوز حليمة ساهمة لا تلوى على شىء . نَقَّلت نظراتها المشتتة بين الوجوه . مسحت «ببيشتها» القذرة السوداء ما تجمع حول فمها من مخاط ودموع .
شُغل الشاب المفتول العضلات . عن الموقف بشىء آخر ، كان مشغولاً بالنظر الى فتاة كانت ترقب الموقف عن بعد . أرخت خمارها على وجهها بعد أن أشاحت به عن الشاب . تأهب حسين لإطلاق صرخة . . كاد يَحْمَر لها وجهه .
رفع الشيخ يده . . كما لو أنه أراد أن يقسم اليمين . وَأد صرخة إبن العجوز . . قائلاً : (والله ثم والله ، لن أتهاون عن ردع كل متهور جهول . لن أغفر لمن تسول له نفسه القيام بعمل طائش وإن كان ذو حق ومظلمة !)

* * *

الغصن يتدلى في فراغ ، يتراقص كحية رقطاء . بالجذع شقوق تنز دما وصديداً . تتدلى الأغصان تلتف حول نفسها . دس عنقه بين يديه . الجذور توجىء بطن الارض . . بدت في نفورها كعروق الأبجر ، صلبوه في جذع الشجرة ، إعتصرته الأغصان بوحشية . صرخ . . يختنق . . عيونه

جاحظة . ذاب صوته والناس من حوله يتضاحكون ويتغامزون :

سال دمه .. لامس أقدامهم !! لا زالوا في ضحكاتهم يغرقون . شنقوا ضحكاتهم !! فَغَرت الدهشة افواههم .. ولاذوا بالصمت فزعين .

قالوا .. (لا تقصص رؤياك على أحد) ، لكنه يخشى أن يصمت عن الحلم .. عن سر الشجرة ، فالشجرة ملعونة .. الشجرة ملعونة !!

* * *

إنتفضت فزعة . خبطت على صدرها . شَدَّت فتاتها من ضفيرتها . فأنكفأت على الأرض متألمة ..

(إياك والخوض في هذه السيرة .. ستموتين كما ماتت شاة حليمة)

(أتصدقين يا أمي حكاياتهم .. و ..)

كَمَّمَت فم ابنتها .. نهرتها والرذاذ يتطاير من فمها ..

(اصمتى أيتها البلهاء .. ستحل ببيتنا اللعنة . شاب والله رأسي مما رأيت وسمعت)

تطلعت إلى أمها .. كانت تلقم فم وليدها . ثدياً ضامراً بدت فيه عروق زرقاء . استدارات في صمت وفى عينيها إحساس مغبون .

* * *

استيقظت القرية على صوت محزون . كانت خيوط الفجر تفتق ثوب العتمة .

(قتل المعتوه)

(معتوه القرية قُتل)

...... !

(أحسب أنكم تتهيبون مما حدث . أمثولة حزن لمأساة حقيقية . ستشخص أبصاركم في الشجرة . السر الذى أَرَّق عيون أهل القرية . ستفزع قلوبكم لما سترون !!) .

(أقبِلُوا .. !)

تراجع من كان في المقدمة ! صُعِقوا . !! ندت عن أحدهم شهقة . آخر أطلق صرخة ، سرعان ما ابتلعها حلقه .. فغاصت في أعماقه مجلجلة !!

(ما رأيتموه ليس حلماً . لا تفركوا عيونكم . إفتحوها .. دعوها تشاهد الحقيقة . أمعنوا النظر فيما ترون . ألا ترون ؟) ..

أغصان الشجرة تهتز مع النسمات الباردة التى كانت تهب من الشمال . كان المعتوه يفترش الأرض تحت أغصانها . رجلاه ممدودتان . بصره إلى أعلى الشجرة شاخص ، وفمه فاغر ، وهوجثة هامدة كما لو كان تمثالاً من الشمع .

كما لو كان تمثالاً من الشمع

* * *

صارت الشجرة فتنة !!

هاجس القرية .. طوفان في الأرض ، وضيق في النفوس ! الخوف ينبت أشواكاً في الصدور . يرتسم اضطراباً وقلقاً في العيون ! الريح تَهُف . هَفِيفُها موحش . أنين تصطرع له الاشياء اليابسة على الأرض !! بدت حليمة ساهمة واجمة . تَحَجَّر الدمعُ الكذوب في عينيها . تسمرَّت نظراتها في كبد السماء . وقف ابنها الى جانبها . أسند رأسه على جدار الطين يفكر ! تفكيره سيء . قلبه واجف . دس فى الجدار نظراته صامتاً .

أسطورة تشغل الاذهان .. تملأ الاسماع . هاجس يدورفى خلد الصغير والكبير . طوفان ينجرف له أهل القرية . الشجرة للملعونة والضحايا

الثـلاث : كلب صيـد الشيخ الـذي ظنوه مسعـوراً ، وشـاة حليمـة والمعتـوه !! كادوا أن يقدمـوا لها قرباناً ! ساد صمت موحش لا تفتت هدأتـه سوى هنهفة الريح .

جاء رجل أشعث أغبر . . مهلهل الثيـاب . . جثى على ركبتيـه . . افترش عتبة مصلى القريـة . . توسَّد نعالـه فمه يتمتـم بكلمات ينـاجى بها نفسـه . نهض . . شرب جرعة ماء ليبتلع بها كسـرات الخبـز اليـابسـة !! انطلق الى حيث يجتمعون . . شق صفوفهم . . شيَّعـوه بنظـراتهـم . يجهلون هويتـه غريـب على أهـل القـريـة . أخـذ يصرخ قطرات المـاء تسقـط من شفتيه . فتات الخـبـز يتـجـمـع فى صدره المكـشـوف : (هشيم الفتنـة يشتعـل . يصبح أوارا بالريح ، يصليكم صلياً يزداد بتفرقكم . طوفـان يجتاح القـريـة . . تيار ابتـدأ مع الشاة !! تيار دم قد سال ، من شاة حليـمـة والمـعـتـوه . طوفـان جاء مع الـفتنـة . . فحذار حذار من الفتنـة . فالأزمـة تشتـد . . الأزمـة تشتـد الأزمة تشتد وسط التفتت والطوفان) .

تلاشـى صوتـه . . تلاشى جسمـه . . صار أثرا في جوف العـتـمـة . كما جاء فجأة . . إختفى مع الطيف والصوت فجأة .

* * *

الليلة مقمـرة . التأم فيهـا شمـل القـريـة . صاروا جسداً واحـداً يستشعـر الألم . صار الحـزن شقـاء يضـاجـع ذلـك الجسـد . صرخ الشيخ فيهم . برزت لصـراخـه عروق عنقه (تشاوروا فى الامر . تغلبوا على هواجسكم بالحكمـة والمنطق . الخـرافـات تملأ الـرؤ وس . . تكـاد والله تسلبكم عقولكم . لابد من اتخاذ قرار حكيم أجمعوا عليه أمركم . . فقد بلغ السيل الزبا) .

ارتـفـع صوت الحـوار . . تضاربت الآراء . . وزَّع الشيخ نظـراتـه بينهم . أطال نظرته فى الشـاب الـذى كانت تساوره نحـوه بعض الـشكـوك . بدأ متحمساً أكثر . . ، رأى في عيني ابن حليمـة العجوز نفس ماراه في عينى ذلـك الشـاب . تركوا الطعـام قبل الشَّبع . لم يغضب الشيـخ . . فأكله طيِّب ، لكن نفوسهم لم يَطِب لها أن تنعم قبل انتهاء ما عقدوا العزم عليه .

خرجـوا وضـوء القمر يسطع فى الـوجوه . . أيديهم وأفواههم تلمـع بالـدهـن . انطـلقـوا بفـؤ وسـهـم وعـصيهم نحـو الشجـرة . أصدر أحـدهـم ، وكان شاباً له شفتان غليظتان ، صوتاً كأنه هزيز رعد تردد صداه فى جوف الليـل . سقط من فمه عود الأراك الرطب . . داسته الأقدام .

تهافتـوا نحـو الشجـرة . . تسلقـوهـا . . كسـروا بأيـديهم العـاريـة ما تدلى من غصـونهـا التى كانت فى متناول أيديهم . سال دم على ثيـابهم . فزعـوا تراجعوا . . كان الدم يسيل من أيـديهم . تفجـرَّت حناجرهم بصـرخـة مدويـه . انهـالـوا بفـؤ وسـهـم وحـرابهـم على الشجـرة . الجـذع ضخم . . طوفـان يَضـخُم به همهم . لن تكـون عقبـة كؤ ود في الخلاص من الهواجس والطوفان . كانت عيـون الشيخ تعدو وتهوى مع فؤ وسـهـم . أطـال النظـر فى الشـاب المفتـول العضلات . تَجمـدَّت يداه فى الهواء والفأس معـلق بها . أغمض عينيـه

وأطلق صرخة مدوية مال بعدها الجذع . . تهاوى . . سقط على الارض وقد أحدث صوتاً كهزيز الرعد .

***

صرخوا . . تراجعوا . . شيء ما هائم ، أفزع قلوبهم . . بقعاً من الدم تلطخ الأرض وشيئاً من أرجلهم انطلق صوت في دواخلهم (الشجرة قتلت تاتي صدق المجنون وكذبتم . ما رأيتموه ليس حلماً . بل حقيقة . . بل حقيقة . . بل حقيقة)

صرخ الشيخ . . فقد تردد في داخله نفس الهاجس ، لم يشأ أن يسلموا أمرهم للطوفان . أخمدنا الفتنة قبل أن تشتعل . . حتى لا تُبعث الهواجس في الصدور ، وحتى لا يصيب عزائمهم التفتت !

هوت الشجرة على سور المقبرة . سقط فجأة من بين فروعها ، رأس حية سوداء قُطِع نصف جسدها . كانت تتلوى . . وتنفث سمها . . صرخوا . . كانت صرختهم واحدة . . رفعوا فؤوسهم وحرابهم وهووا بها على رأس الحية فقتلوه .

كانت خيوط الفجر تشقق ثوب العتمة . . كان فجراً جديداً على القرية . . تموسقت أصواته مع النسمة وصياح الدِّيكة . . وثغاء الغنم . . ونهيق الحمير . . وخوار البقرة .

جدة ١٤٠٥/١/٢٩هـ



٣٨ ــ قبل ان تكدره الخلائق بانفاسها

كانت امرأة من العرب تأتي بصبية لها كل يوم قبل الصبح فتقف بهم على تل عال ، وتقول : خذوا صَفوَ هذا النسيم قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها .

رباعيات القلب المتعب

الى الملهمة : فاطمة

خلف شهاب

(١)

انطوت رحلة الشقاء اخيرا في ضميرينا غصة محفورة
انطوت رحلة الشقاء وصرت في سجل الحياة انبل صورة
صفحة من حياتنا كيف تطوي آية في نقائها اسطورة
اذكريني اذا رحلت فاني أترك القلب في العيون الجسورة

* * *

(٢)

التقينا حين الغروب وقلبي وردة الحزن حين يأتي الغروب
وغفونا على الاماني سكارى واشرأبت ترنو الينا الدروب
ووعى ذلك المساء حديثا رائع الطهر حدثته القلوب
وكتبنا احلى الكلام ولكن لا ارى يطفيء الظما المكتوب

* * *

(٣)

اذكري ساعة التقينا وكنت كاله منمنم اغريقي
اذكريني غداة تاه شراعي فاذا انت نجمة في طريقي
أنت في رحلة الحياة سراجي اتضوى به وأنت رفيقي
اعذريني اذا رحلت فاني كم تعذبت من فؤادي الخفوق

* * *

(٤)

كنت وحدي حين المساء على الارض القى بهية الوانه
سكر الافق من مغازلة الشمس والقى الى الهضاب دنانه
رن صوت من الفضاء حزين في ترانيمه ويشكو الخيانه
شاعر يقتل التي الهمته واتى يسمع المساء أحزانه

* * *

(٥)

أوصد الشعر كل باب وأغفى وأنا ساجد على أبوابه
صحت يا شعر .. هيكل الشعر قفر وصدى والصوت رن في محرابه
صحت يا شعر .. هل يطول وقوفي ؟ الف صوت سمعته متشابه
قاتل .. تذبح الحبيب وتأتي تطلب الشعر آثما غير آبه

* * *

(٦)

هامت الروح في محاريب طهر وتهاوى الخيال في خلواته
طار قلبي كعاشق فوضوي باحثا في الفضاء عن اشتاته
ممعنا في ارتياد كل بعيد كحصان يجد في قفزاته
أين عيناك تنظران كأني ناسك قد نسى طقوس صلاته

* * *

(٧)

أين يا أيها الحبيب ملاذ لشراع في رحلة العمر تائه
ضيع المرفأ الامين وولى يتغذى الالام في صحرائه
رحمة ايها الحبيب لماذا كل هذا الدلعنات في كبريائه
أنت تدري بما يريد وتدري أنه وردة على أعدائه

* * *

(٨)

تاه قلبي في عالم الحب حينا وتهاوى الى صحارى كثبه
وأتتني الذئاب تنهش لحمي وتعاوت حولي وحوش غريبه
كيف أبعدت فجأة ؟ حين هبت عاصفات من الشقاء عجيبه
كيف أقوى على شقائي وأنت لا تريدين صحبتي يا حبيبه

* * *

(٩)

كلما أترعت همومي دنا صاح قلبي الظمآن بالله هاته
غربت شمسنا وضاع هوانا ومضى العمر لافظا حشرجاته
غادرت أجمل البلابل دوحا صغنا احلى الاطواق من زهراته
وانتهى بيننا زمان جميل ، أجمل العمر كان في خلواته

* * *

(١٠)

يا حبيبي أنا اعود فهلا قلبك الطاهر الكبير يؤوب
غير عينيك ما سقاني القوافي وأنا عائد اليك أتوب
كذبة .. أنني صبور على الهجر شجاع وأني لا .. أذوب
كذبة .. كذبة .. وأكذب منها ان من ينكر الهوى لكذوب

* * *

شعر : خلف شهاب ـ تدمر

الشاعر عمران : رواد الحداثة يكتبون القصيدة الكلاسيكية على انواعها .. حساسية الشعر هي الأصل في الحساسية و الايقاع ..

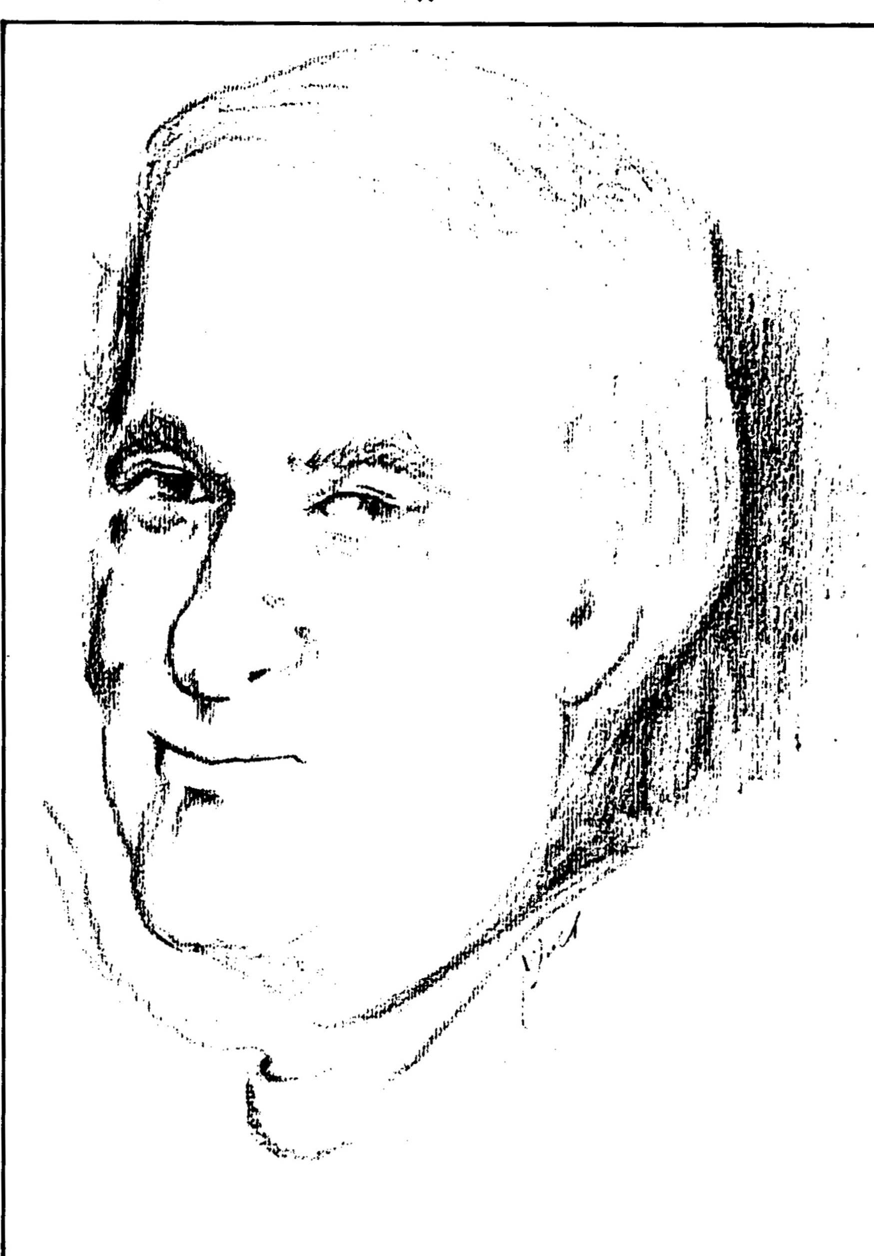
* ولد في دريكيش سنة ١٩٣٤ وتلقى تعليمه الاولى فيها ثم تابع دراسته في جامعة دمشق وتخرج فيها مجازاً في الادب العربي ...

* عمل في الصحافة الادبية محررا في جريدة الثورة ثم سكرتير تحرير وهو الان رئيس تحرير مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب في دمشق . وسبق له ان عمل في حقل التدريس مدة من الزمن .

* يكتب الشعر والمقطوعات الادبية وقد بدا في اوائل الخمسينات وكذلك فهو يمارس الكتابة للاذاعة وكتب الاوبريت الغنائية .

* من اعماله المطبوعة :

١ ــ اغان على جدار جليدي ــ شعر ــ دمشق ١٩٦٧ .
٢ ــ الدخول في شعب بوان ــ شعر ــ دمشق ١٩٧٢ .
٣ ــ انا الذي راى ــ شعر ــ دمشق ١٩٧٩ .
٤ ــ كتاب الملاجة ــ شعر ــ بيروت ١٩٨٠ .
٥ ــ للحب ايضا وقت ــ مقالات دمشق ١٩٨٠ .
٦ ــ اوراق الرماد ــ مقالات دمشق ١٩٨٠
٧ ــ قصيدة الطين ــ دمشق ١٩٨٢ .
٨ ــ الاحمر والازرق ــ شعر ــ دمشق ١٩٨٤ .
٩ ــ الاشياء ــ كتابات ــ دمشق ١٩٨٤ .



في مطعم الشرفة الكائن في الطبقة السادسة من مبنى اتحاد الكتاب العرب ، والمطل على مدينة دمشق الفيحاء ، كان لقاؤنا مع الشاعر محمد عمران رئيس تحرير مجلة المعرفة السورية ، حول مائدة جمعت بين لذيذ الطعام وغذاء الشعر والفن .

وفيما يأتي نص الحوار الذي دار بيننا وبينه :

□ الاستاذ الشاعر محمد عمران : الصراع القديم والجديد لا يزال موضوع الساعة ، والشعر العربي اليوم يتنازعه مذهبا العمودية والحداثة ، وقلائل هم الشعراء المحدثون الذين استطاعوا أن يشدوا القارىء الى تجاربهم الابداعية الجديدة ، والملاحظ أن هؤلاء بدأوا كشعراء كلاسيكيين . فما رأيك في هذا ؟

ـــ اعتقد أنه ما من شاعر حديث ممتاز الا وله جذور كلاسيكية (اتباعية) . وأن رواد الحداثة يستطيعون كتابة القصيدة الكلاسيكية بأنواعها المختلفة الى جانب قصيدة التفعيلة .

وقد بدأت كما بدأ الكثير من أبناء جيلي متتلمذا على الشعر العربي القديم . والجاهلي منه بخاصة . ولي قصائد عمودية كثيرة . أهملتها في ما بعد . لا لانها ضعيفة . بل لانها كانت أضيق من أن تعبر عن تجربتي ومعاناتي المتناميتين مع الايام . وفي ظني أن الشاعر الذي لا يجيد كتابة الشعر العمودي . لا يجيد كذلك كتابة القصيدة الحديثة . ومن أسف أن ما نقع عليه من نثر باسم الشعر . هذه الايام . انما هو عاجز عن أن يصل الى مرتبة الشعر . لا لسبب الا لان كاتبه لم يستو شاعرا عموديا في البدء . فشعراء الحداثة الجدد يقرأون القصائد المعربة فينسجون على منوالها . ناسخين تجارب الاخرين من غير وعي لحساسية الشعر التي هي . في الاصل . حساسية . الايقاع .

فلا عجب في أن يسألك أحدهم : ماذا يعني الايقاع في الشعر ؟ . ذلك بأنهم لم يتلقوا أصالة الايقاع العربي . ولم يستوعبوا فرادته . فهم يجددون في فراغ . ولهذا لا أعترف بأي شاعر حديث لا يتقن كتابة الشعر الموقع .

□ هل تسعفك الذاكرة فتزودنا بشاهد من شعرك العمودي ؟

(وهنا أطرق الشاعر فترة ثم رفع رأسه وقال :)

وليس حبي منجى ولا صدفا حبي عظام لعصرنا الرخوي
وهو دخول الى التراب وعصف في مدارات طقسه المطري

□ هناك من يتحدث عن الموسيقى الداخلية في القصيدة الحديثة . مارأيك في هذا ؟ وما تعريفك لتلك الموسيقي ؟

ـــ لست أذكر من الذي سمى الشعر رقصا . والنثر مشيا ، انما اعرف ان الرقص اجمل من المشي . ولكن كيف نعرف الرقص ؟ اي كيف نعرف الايقاع ؟ وماذا نسمي ايقاع اللغة في آيات القران ؟ ولماذا سماه العرب الجاهليون الذين لم يدخل الاسلام قلوبهم شعرا ؟ كل هذه الاسئلة تدفعنا الى القول : ان للايقاع في الواقع اكثر من تعريف ومظهر .

اعتدنا أن نقول ان هناك ايقاعا خارجيا للشعر وايقاعا داخليا ، واعتدنا ان نسمي ايقاع التفعيلة ايقاعا خارجيا وكذلك ايقاع القوافي .

اما الايقاع الداخلي فما زلنا نجتهد لتعريفه . فاذا كنا خارج الوزن والتفعيلة وايقاع الشطرين فأين نقع ، اذا ، على الايقاع في قصيدة النثر ؟

مرة اخرى اتهم كثيرا من كتبة قصيدة النثر بأنهم لا يعرفون معنى الايقاع فيها . ومادمنا نسميها قصيدة فهي شعر ، حتى ولو كانت بلا ايقاع خارجي . ولانها شعر فهي موقعة حتما . كيف ؟ نبحث اولا في لغة الشعر ، اللغة المكثفة الموحية الشفافة ، التي يسقط منها كل ما هو استطالة نثر ، تحمل ايقاعها في داخلها : الكلمة مع الكلمة ، والصورة الى جانب الصورة . تناسق الحروف والالفاظ ، تناسق الصورة . هذا كله . اذا كان بيد شاعر متمكن من ادواته . يقدم ايقاعا داخليا للقصيدة .

□ اشرت في حديثك الى اللغة المكثفة والصورة فما مفهوم الصورة الشعرية في رأيك ؟

ـــ الاستعارة اساس الشعر وهي مظهر الصورة . وما سماه « ايليوت » المعادل الموضوعي في الشعر . سماه الجرجاني قبله بألف عام او اكثر بصيغة ما . الشعر تصوير اي نقل المعنى المباشر الى معنى رمزي عبر الاستعارة . بتعبير اوضح هو الباس الفكرة ثوبا ما والا فهي عارية . الفكرة العارية نثر . والفكرة المرتدية كلمات « مرسومة » شعر . انت لا تقول اشياء مباشرة . انت ترسم رموزا للاشياء . هذه الرموز بصورها ودلالاتها وايحاءاتها هي الشعر والفن بعامة . واذا كانت كتب البلاغة العربية تتحدث عن التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وسواه . فان هذه كلها صور او طرق للوصول الى التصوير في الشعر .

□ بالنسبة الى الصورة الشعرية هل ترى أنها تجميد للفكرة في لحظة زمنية معينة أم أنها تحمل حركة ذات مدى زمني أبعد ؟

ـــ الصورة الشعرية الابداعية هي التي تحمل ابعادا ايحائية لا ترتهن للحظة زمنية معينة وهذا هو الفارق الرئيسي بين المصور الفوتوغرافي والرسام التشكيلي او بين الناظم والشاعر .

□ لماذا ركز معظم شعراء الحداثة على المجاز والطباق وأهملوا وسائل بلاغية أخرى كالتشبيه ومراعاة النظير واللف والنشر مثلا ؟

ـــ في الشعر الحديث الغاء كامل للتشبيه بأنواعه المختلفة . فالارتكاز الاساسي يقوم على الاستعارة دون سائر اشكال المجاز . اما الطباق فهو جوهر الحياة . فهو اذا جوهر الشعر . الكون كائن ضدي في الاصل وكل ما فيه قائم على النقائض : المهد واللحد . الولادة والموت . البدء والانتهاء . الوجود والعدم . هذه الجدلية الثنائية ، التي هي اساس الكون . هي اساس الشعر .

اما بالنسبة الى مراعاة النظير فهو أكثر من تحصيل حاصل في الشعر الحديث . لان الوحدة لم تعد مقصورة على البيت الواحد . بل اصبحت القصيدة الحديثة كلها مراعاة لهذا النظير . لانها تشكل وحدة عضوية متكاملة

بصورها وجزئيات هذه الصور وتفصيلاتها ، واذا لم تكن كذلك فهي ليست من الشعر الحديث .

□ بما أننا نتحدث عن الصورة الشعرية . التي هي حركة ولون فما اثر اللون في شعرك ؟

ــ لو لم أكن شاعرا لكنت رساما . على اني لا اجيد من الرسم سوى حساسية الالوان . فاللون بالنسبة الي جزء من تكويني فانا ابن ريف في الاصل وولادتي بدات مع الطبيعة بالوانها المختلفة الحادة : الاخضر اخضر بغير شائبة ، شقائق النعمان حمراء ، الزهر في الربيع اصفر ، السماء زرقاء ، قوس قزح ملون . كل لون له عمقه ومداه في حياتي الاولى ، ولقد طبعت هذه الالوان في ذاكرتي . وما زلت اذكر اني قرات لرامبو كتابه في دلالة الحروف : لكل حرف صوت ولكل صوت لون ولكل لون دلالة . فاناحين اكتبشعرا في الالوان فاني اكتب عن المعاني والدلالات والرموز التي تحملها تلك الالوان . وهذا جزء من الارث الذي حملته في ذاكرتي .

اذكر ايضا ، وعلى سبيل المثال ، ان بابلونيرودا سئل مرة عما يعني له اللون الازرق في قصيدة يرثي بها صديقه لوركا (من اجله تدهن المشافي باللون الازرق) فأجاب ببساطة : انني احب هذا اللون ولا استطيع شرحه .

واذا كان اللون الازرق هو لون الطفولة الحامل دلالة الهدوء والاطمئنان ، فلانه ببساطة كلية اللون الاول والاساس في الطبيعة التي يشاهدها الطفل في السماء والبحر .

□ لك ديوان يحمل عنوان « الازرق والاحمر » فما دلالة هذين اللونين فيه ؟

ــ الديوان كله قائم على هذين اللونين وما بينهما تتداعى بقية الالوان . وقد حاولت من خلالهما ان اعبر عن الحياة والموت ، الحلم والقتل ، الامل والدم ، عبر رؤياي العربية للواقع الذي نشهده جميعا . فحيثما نهض الازرق بحلمه الجميل يتصدى له انفجار الاحمر فيقتل كل شيء .

الرؤيا عربية في الاساس ولكنها انسانية في المدى ، انها رؤيا للعصر بكل ما يحمل من تناقض حلم الانسان مع ارادة الدمار التي تقتل كل ما هو جميل في حياتنا المعاصرة . الالوان في الديوان ذات مدى فكري وسياسي . ولعلي استطعت ان ارسم من خلالها صورة الرعب في عالمنا المعاصر .

□ لاحظنا أن معظم الباحثين الذين تصدوا لهذا الديوان بالدراسة قد انطلقوا في نقدهم اياه من اللون . فهل انصفوه ؟

ــ اللون هو مفتاح ديوان الازرق والاحمر . والدخول اليه من هذا الباب دخول مشروع وكامل اذا كان الداخل متمكنا من ادواته وواثقا من خطوات أقدامه . هناك محاولة للتعبير من خلال اللون عن قضايا العصر التي نعيشها ، وأستطيع القول انهم وفقوا في الولوج الى الديوان ونقده من خلال عنصر الالوان .

□ يا أبا وعد ماذا عن « الملاجة » والديوان الذي يحمل اسمها ؟

ــ « الملاجة » او كتاب الملاجة محاولة للدخول في العالم عبر نافذة ضيقة . فعلى لغة النفري : كلما ضاقت العبارة اتسعت الرؤيا . حاولت ان اكون خصوصيا جدا لاكون واسعا جدا . « فالملاجة » في الاصل قرية حملت معي هم رحلة كاملة في عصر صعب بدءا من انطلاقتنا الاولى كجيل يحمل هم وطن الى انتكاستنا كجيل قد ارتطم بالعالم ورعبه فنكس رايته ولم ينهزم . تحمل « الملاجة » هذه الرؤى في الحب والسياسة والوطن والعالم ، وتحاول ان تقول كلمتها في هذه القضايا جميعها ، ملاذها الاخير هو الحب : الحصن الاخير الذي يسقط هو ايضا في عصر لا عاصم فيه لاحد : تلك هي « الملاجة » .

□ كيف تنظر الى الشعر العمودي اليوم ؟

ــ أسأل اولا هل بقي في العربية شعر عمودي ؟ واذا كان الجواب بالايجاب فما الاضافة التي يقدمها شعراء الاتباعية المعاصرون للشعر العربي العظيم منذ طرفة الى الشريف الرضي ؟ والشعر الذي لا يقدم اضافة ، ما جدواه ؟ أسأل : هل عظمة احمد شوقي تكمن في معارضاته لميمية المتنبي وسينية البحتري وميمية البوصيري وبائية ابي تمام ؟ أم في غنائياته الاخرى وأعماله المسرحية ؟ وهذا السؤال ينسحب على شعراء النهضة جميعا . ما الاضافات التي قدموها للشعر العربي ؟

في اعتقادي أن الارتكاز على التراث الشعري العربي لا يعني اعادة نسخه ، جميلا كان أم مشوها ، بمقدار ما يعني استلهامه والانطلاق منه الى رؤيا جديدة تستلهم العصر وانسانه ، ازمة الشعر العمودي عامة كامنة في انه ينسج على مثال الماضي . اذ ماذا يضيف بناء مصري جديد الى اهرامات مصر اذا حاول ان يقلدها ؟ بل ماذا أضاف شوقي وبدوي الجبل والجواهري الى روائع الشعر العربي في عصره العباسي بالذات ؟ هل سينية شوقي اذا قيست بالموازين الشعرية الفنية في مستوى سينية البحتري ؟ وهل مدائح بدوي الجبل في شموخ سيفيات المتنبي ؟ وهل أمجاد الجواهري في المدح في مستوى عمورية ابي تمام ؟ ما الذى اضافوه اذا ؟ والشعر ان لم يضف شيئا فلماذا يكون ؟ اليست الحضارة اضافة والفن اضافة ؟ . وكل جيل لا يضيف الى من سبقه فهو ملغى في ذاكرة الحضارة والفن . بكلمة مختصرة الشعر العمودي في عصرنا الحاضر هو من قبيل لزوم مالا يلزم .

□ يقول أحد النقاد ان الشكل العمودي ، مهما يكن مضمونه ، لا يمكنه أن يستوعب الصورة الشعرية المجددة . لانه حاجز أمام الاضافة فما رايك ؟

ــ الشكل العمودي رؤيا وليس شكلا . والشاعر الاتباعي العربي يرى العالم والعصر بمنظار السابقين لا بمنظاره هو . انه يبني على مثال . والبناء على مثال ليس ابداعا . هذا من جهة . ومن جهة اخرى . فانه لا يمكن ان نبني مجتمعا اشتراكيا في هيكل اقطاعي . فلكي ننطلق الى بناء المجتمع الجديد ينبغي أن نهدم الهيكل القديم . فلكل عصر رؤى ولكل رؤيا لغة وطريقة لذلك

فاني أوافق الناقد على ان الشكل التقليدي للشعر لا يصلح لعصرنا هذا لانه عاجز عن احتواء معاناة الانسان فيه . ذلك ان الشعر يولد ومعه ايقاعه الخاص وهو ايقاع يختلف بالتأكيد عن الايقاعات الجاهزة التي تقدمها القصيدة التقليدية .

☐ هناك من يرى في القصيدة الحديثة عموديه واتباعا ، فما رايك ؟

ــ هذا صحيح . فالعمودية تعني المنهج . فان يكون القصيدة منهج ينهجه الشعراء جميعا . يعني الدخول في عمودية جديدة او تقليدية جديدة . والقصيدة العربية الحدثة دخلت في هذه العمودية من بابين :

الاول تقليدية التفعيلة . والثاني النثر . فاما تقليدية الرمز . كالابتداء دائما بالوقوف على الحبيبة بدلا من التفعيلة فاعني بها دخول القصيدة العربية في رتابة الوقوف على الاطلال . فالمراة صارت الرمز الاول الذي نفتتح به معظم قصائد شعرنا الحديث (المراة الارض . المراة الوطن . المراة القضية) ومن خلال كون المراة رمزا . ينطلق الشاعر الى الفرض الذي يكون في الغالب موضوعا سياسيا او وطنيا او قوميا . وهذه تقليدية جديدة تضع الشعر في الطريق المسدود .

واما تقليدية النثر فهي الاخرى تضعنا في الرؤى المنقولة عن يوميات حياتنا بتفصيلاتها وجزئياتها . من غير ارتكاز على اساس رؤيوي شعري للعالم . ان اليوميات لا تصنع شعرا بل ان الجانب الشعري يعيش في اليومي اذا كان منتقى ومصفى من النثر .
هذان المقتلان (تقليدية التفعيلة . ورتابة النثر) تضعان القصيدة الحديثة امام سؤال مهم : الى اين ؟ والجواب ليس لدي .

☐ يقال ان الشعراء المحدثين هم النقاد البارزون فما رايك ؟
ــ اذا كان النقد ابا للشعر فان شعرنا يتيم . فلا نقاد للشعر عندنا بل هناك انطباعات صحافية . في معظمها دراجيه في منطلقها . تتحكم في مسيرة النقد الادبي . ولان الامزجة هي الفاعلة في غياب المعايير النقدية الحقيقية . فان ما يكتب من دراسات انطباعية اليوم يبقى خارج النقد الصحيح .
ما نقراه ليس نقدا بل هو مديح زائد او شتيمة زائدة . وما من أجد في ما اعلم وضع الشعر العربي الحديث في مسار النقدي الاصيل . اما الشعراء الذين يتحدثون في النقد فهم ينطلقون من تجاربهم ويكرسونها نظرية لكتابة الشعر . وهذا ايضا يدخل في مناخ المزاج النقدي . باختصار ليس لدينا شاعر ناقد كاليوت او كارشيبالد ماكلش . انما عندنا شعراء جيدون . ينظرون لمواقفهم الشعرية ولكنهم ليسوا بنقدة للشعر .

☐ اخيرا هل في وسعنا ان نعرف ما الجديد الذي يهيئه الشاعر ابو وعد ؟
ــ وعد جديد بقصيدة طويلة تظهر قريبا بعنوان « هو الذي يجيء » .

د. احمد الحمصي
عبد الكريم شنينة

تناسخ

شعر: محمد عمران

هي ساعة ،
تتقمص الاشجار وجهك ،
ساعة
تلد الجذور حنانها ،
وتكون عيناك السرير ،
اكون مرآة ،
وتنسكبين في ألقي ،
يكون لصوتك المغسول ظل
قصيدة . . . ،
هي ساعة
تتحول المرآة ،
تدخل في القصيدة ،
والقصيدة ،
في
الجذور ،
ويكون صوتي
قد تناسخ
في
البذور

*

سحر الألفاظ

د. جميل صليبا

جاء في كتب الادب ان سعيد بن عثمان بن عفان قال لطويس المغني أينا أسن انا او انت ياطويس . فقال بابي انت وأمي ، لقد شهدت زفاف امك المبارك الى ابيك الطيب ، فانظر الى حذقه والى معرفته بمخارج الكلام. كيف لم يقل بزفاف امك الطيبة الى ابيك المبارك ، وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى (البيان والتبيين) .

وفي الحق ان للمعرفة بمخارج الكلام وساعات القول وانتقاء الالفاظ اعظم الاثر في نفوس السامعين لان لاتساق الالفاظ سحراً يضاهي تأثيره تأثير الالحان . والجمال غاية الالفاظ كما ان الحقيقة غاية المعاني ومثلها الاعلى . فللألفاظ وامتزاجها ولمخارج الحروف وتركيبها جمال لايقل سحراً عن جمال النغمات الموسيقية والالوان المتسقة ، وقد قيل ان من البيان لسحراً .

لقد بحث ادباؤنا في تأثير اللفظ وسحره وحسن دلالته واسهبوا في ذلك ، حتى ملأوا كتب الادب بالاخبار التي تدل على حسن انتقاء اللفظ وتأثيره في المعنى الوحشي البعيد وتقريبه للأذهان مما لا اجد الآن حاجة الى ذكره .

والناس قد افتتنوا بالالفاظ منذ القدم فلم يقتصروا في بيان تأثيرها على نقل الافكار من المتكلم الى السامع بل اعتقدوا ان لها بعض الخواص السحرية . واي سحر هو اعظم وامتع من صوت تسمعه فتفهم معناه ، وكيف تتألف الالفاظ من الحروف ، لابل كيف نفرق بين الاصوات ، وكيف تكون دلالتها . ان في الالفاظ لسحراً ، فلا غرو اذا افتتن الانسان الاول بالالفاظ وعزا اليها خاصة سحرية وظن انه يستطيع ان يؤثر بها في حوادث الطبيعة .

كنا ونحن في المدرسة الثانوية نقصد منجمة من منجمات دمشق لاستماع حديثها العذب والفاظها الساحرة . وكان كل من اصحابي يسألها عن طالعه وحاجات فؤاده ، وكانت لاتحفل بهزئنا وضحكنا بل تتمتم وتدمدم وتقرأ لنا سجعاً لاتزال نغماته ترن في اذني . ثم تعطي كلاً منا تميمة (حجاباً) وتطلب منا ان نحلها في الماء ونشرب محلول الفاظها . لم اتبع يوماً من الايام علاج المنجمة ولكني اعرف كثيرين ممن شربوا محلول الالفاظ واستشفوا بسذاجة الاعتقاد .

فالالفاظ تشفي من بعض امراض النفس ولعلها تشفي ايضاً من بعض امراض الجسد . وربما كان علاج بعض الامراض بكيمياء الالفاظ لايقل تأثيراً عن العلاج بالعقاقير ، بل ربما كان بعضهم اميل الى التأثر بالكلام منه الى التأثر بالمادة . الا تقول العامة في بلادنا « ان الكلمة الطيبة تخرج الحية من وكرها » ، الايسعى المشعوذون لاخراج الشياطين من صدور المجانين بالالفاظ التي يهمسونها اليهم . وكم عليل تحسن حاله بالكلام ، وكم هم بدده سحر البيان وقوة البلاغة . فكأن الالفاظ ادوية وكأن الخطباء اطباء .

ومن تأثير الالفاظ عند الشعوب الاولية انها كانت تحرس المال وتحفظ الملك كما كانت تشفي من الامراض . فكان الانسان لا يجسر ان يسرق اموال اخيه خوفاً من الالفاظ ، لان الذي سرقت امواله ينادي بالويل والثبور ويشتم ثم يدعو الى الله ان يصاب السارق بالمرض والجوع والغرق والحريق والهلاك . فاذا علم السارق بذلك ارجع ما سرقه الى صاحبه خوفاً من تأثير تلك الالفاظ وسحرها ، وكان الناس يكتبون بعض الالفاظ على الواح من الحجر او من الرصاص ويضعونها في المحل الذي يريدون ان يحرسوه او في معبد الاله الذي يبتهلون اليه ولايزال قسم كبير من هذه العادات موجوداً اليوم عند قبائل (الداياك) من جزيرة بورنئو .

وهذا ما يدعو الى القول ان الالفاظ سلاح يستطيع الانسان ان يدافع به عن ماله كما يستطيع ان يدافع به عن نفسه . نقل لي احدهم ان في بلاد الافغان عادة تقضي ان يستأجر النساء المتخاصمات شتامات كما نستأجر في بلادنا ندابات . كل شتامة تنزل اختها باللعنات والشتائم . فاذا غلبتها شعرت موكلتها بلذة الانتصار وشرف الغالب . فهناك اذن مبارزة تقتصر على اللفظ ولا تحتاج الى الفعل وهي اقل خطراً من المبارزة بالسلاح . وكم مرة خلص الكلام صاحبه من القتل . من

ذلك ان الحجاج ضرب مرة اعناق اسرى فلما قدموا اليه رجلا ليضرب عنقه قال : والله ، لئن كنا اسأنا في الذنب فما احسنت في العفو فقال الحجاج اف لهذه الجيف اما كان فيها احد يحسن مثل هذا وامسك عن القتل . فالمعاني المختلجة في النفوس والمتصلة بالخواطر لاتجدي نفعاً اذا لم يظهرها اللفظ وتدل عليها الاشارة .

وكما يصح ان نقول ان الالفاظ سلاح فكذلك يمكن القول انها ثروة . فالخطيب والمحامي والاستاذ يتاجرون بالالفاظ ويبتاعون الرطب بالخطب . ولولا ستثمرهم للالفاظ كما تستثمر رؤس الاموال لما نجحوا في اعمالهم . ولعل تجارة الالفاظ اكثر انتاجاً في بعض الاحيان من تجارة البضائع ومبادلة الاموال ، لان معينها لاينضب ولا يجف بكثرة الاستعمال بل يحسنها الصقل ويزيد قوتها الانتقال وهكذا فان الالفاظ واسطة من الوسائط التي استطاع الانسان ان يتغلب بها على الطبيعة حتى لقد كان الملوك يستمطرون الرحمة من السماء بالالفاظ التي كانوا يبتهلون بها كأن لالفاظهم تأثيراً في حوادث الكون فكانت الامطار تهطل بتأثير الالفاظ كما يزداد الخصب ويمتنع الجراد وتزول الاوبئة .

جاء في كتاب (عمل بسيشه) (١) لفريزر ، ان الكارنيين من قبائل برمانيا يعتقدون ان للزنى مثلاً تأثيراً في الطبيعة فاذا انقطع المطر واجدبت الارض اجتمع عقلاء القبيلة وابتهلوا الى الله ان يعاقب الجاني . ثم انهم يبتاعون خنزيراً ويذبحونه ويعطون كلا من الزاني والزانية رجلا من رجليه ثم يشقون في الارض تلماً ويملأونه من دم الخنزير ويرددون هذه الالفاظ : « يا اله السماء والارض ورب الجبال والآكام . لقد ايبست ثمار الارض بعملي ، فلا تؤاخذني ، ولا تبغضني لانني جدير برحمتك وعفوك . انظر الي . ها انا ذا اصلح الجبال واحيي الروابي والانهار . رب رحماك لاتضع اتعاب الناس ولا تهلك اموالهم » الخ . (ص — ٨٠) ويعتقدون انهم يستطيعون بمثل هذه الالفاظ ان يؤثروا في حوادث الطبيعة ويغيروا مجرى النواميس وهناك امثلة عديدة مقتبسة من عادات الشعوب واخلاقهم تدل على هذا السحر في الالفاظ .

ولو لم يكن في الالفاظ الا تأثيرها في نقل الافكار وتفهم المعاني لكفى بذلك دليلاً على سحرها . لولا الالفاظ لما اطلع الانسان على فكر صاحبه ولا ادرك ماهو قائم في صدر اخيه . فبالالفاظ تحيى المعاني وعلى قدر وضوحها ودلالتها يكون البيان . والمعنى لايظهر ولا ينقل من الضمير الى الضمير ولا يمر من القوة الى الفعل ولا يثبت الا باللفظ . فلولا الالفاظ لما امكن حصر القياس ولا حسن الاختصار ولا دقة المدخل في الكلام . ولولاها لما ثبتت المعاني العلمية . ولا اغالي اذا قلت ان الاصطلاحات العلمية تعادل نصف العلم .

فها انت ترى ان للالفاظ شأناً عظيماً في الشعور والتفكير والارادة وحسن الدلالة فقد توحي اليك بالمعنى الذي لم يخطر على قلبك وقد تفسد المعنى اللطيف وترفع المعنى الوحشي . ولا غرو اذا عشق الناس الكلام والكلام اصل الوجود : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » وقال فيكتور هوغو : اللفظ هو الكلمة والكلمة هو الله . فكأن اللفظ آلة للسحر وكأن الكلام إله معبود

* * *

ولو لم اقف من سحر الالفاظ الا على هذه الامثلة لوجدتها كافية ، الا ان هناك امثلة عديدة تدل على سحر اللفظ وتدل في الوقت نفسه على مضرته . وانا لم امتدح لك الالفاظ الا لاحذرك من معاطبها . نعم ان الالفاظ تثبت المعاني وتعين الفكر ، الا ان تصور المعنى يسبق الدلالة باللفظ والانسان لايستطيع ان يوضح باللفظ عن كل مافي نفسه من المعاني المكنونة والافكار الخفية حتى قال العلماء ان الالفاظ لاتدل الا على قسم مما يخالج النفس من المعاني ، لانها محصورة معدودة اما المعاني فغير محصلة غير محدودة وهذا مايعبرون عنه بقولهم ان المعاني متصلة والالفاظ منفصلة .

وقد يحمل الاهتمام بالالفاظ على اهمال المعاني فيفتتن الكاتب باللفظ دون المعنى ويشوه الفكر حباً بموسيقية الالفاظ وينسى ان للافكار جمالاً بذاتها حتى لقد يبعثه هذا الغرام بالالفاظ على استعمال الكلام دون فهم معانيه فيحدثك عن « شآبيب الرحمة » و « افواف الوشي » وهو لايفهم معنى مايقول . ولكن اعجبه مافي العبارة من الوقع وما في نغمتها من الصدى فاستعملها وسترمعناها بحجاب من الرضا والاغضاء . ان شدة الاعتناء بالالفاظ توقف نمو الفكر فيصبح آلة تكرر ماحفظت وتغربل مانقل اليها من غير ان تبدع . وقد قيل ان اضاعة العمر بالوسائل مانعة من الوصول الى المقاصد

لقد ورثنا هذا الشغف بالالفاظ عن اجدادنا فتأخر الابداع في آدابنا وازداد تقيدنا بالاوضاع المعروفة والتعابير المألوفة . وقد فتنتنا صناعة اللفظ حتى ذهلنا عن المعاني . وما اكثر ادبائنا الذين اضاعوا عمرهم في وزن السجع وصقل الالفاظ . انهم يكتبون بلغة غير طبيعية ولهجة غير معتادة كأن بساطة التعبير حرمان من الادب او كأن وضوح العبارة نقص من العلم . قرأت في كتاب للموسيو (لودانتك) (١) ان استاذاً من اساتذة الفلسفة كتب على احدى مقالات تلاميذه ملاحظة قال فيها : ان عبارة المقالة واضحة جداً وان القارئ يفهمها بسهولة . وقد قال فولتير عن نفسه انه مثل الجداول الصغيرة فهي شفافة لانها غير عميقة .. ولكن هل يجوز ان تكون اللغة العلمية غير واضحة . ان الذي يريد ان يكتب المواضيع العلمية بلغة الحريري او بلغة الهمذاني اشبه بالمرأة الجميلة التي تفسد جمالها بالمساحيق .

ولم يقتصر حب الالفاظ على الادباء بل عم العلماء ايضاً حتى نظموا العلوم شعراً فهناك اراجيز للنحو والمنطق والطب تدل كلها على هذا الميل المخالف للطبيعة . ان نظم الطب شعراً يضر الطب والشعر معاً . وكذلك نظم النحو فهو لا يكسب ملكة اللغة والانشاء بل يكسب صناعة لفظية لا فائدة للعلم منها . قل لي بربك ما الفائدة من نظم كتاب اقليدس ؟ ان القضايا الواضحة يجب التعبير عنها بالفاظ واضحة . غير ان الميل الى المجاز واستعمال الكنايات والحرص على موسيقى الالفاظ

---

(١) La Tâche de Psyché

(١) Le Dantec : Les Influences ancestrales

فتن العلماء كما فتن الشعراء حتى قال بعضهم ان الفن والعلم اخوان لايفترقان وان للحقيقة شعراً كما للشعر حقيقة · لاجرم ان في الكشف عن الحقيقة جمالا لايقل روعة عن جمال الفن نفسه الا انك اذا حاولت ستر الحقيقة بحجاب من الالفاظ شوهت الحقيقة · فالحقيقة يجب ان تبدو بثوبها الطبيعي لابثوبها الصناعي ، واذا ظهرت بثوب غير ثوبها فقدت جمالها ·

ولعل السبب في هزء العلماء بالادباء انهم لايتكلمون بلغة واحدة ولا يدل اللفظ عندهم على معنى واحد · فالعالم اذا اراد ان يبحث عن تأثير الريح في امواج البحر لايقول : « نسج الريح على الماء زرد » بل يسمي الاشياء باسمائها · ولو استمر العلماء على البحث في خواص المادة الخفية كما كانوا يفعلون في دور ما بعد الطبيعة لما تقدم العلم · الا انهم اقتصروا اليوم على البحث في الاعراض الظاهرة · فلفظ الرمان يدل عندهم على الرمان فقط وهم يبحثون عن لونه وتركيبه اما الادباء فلايزالون يبحثون عن معنى (الرمان) وصوره ، ولعلهم اذا أكلوا الرمان تغذوا « بحقيقة » الرمان كما يتغذى اليوم بعضهم بسحر « الفيتامين » ·

ولعل السبب في عشقنا للالفاظ فساد طرق التربية في مدارسنا · فتربيتنا تربية لفظية · تملأ عقل التلميذ بالالفاظ دون المعاني ، وتشحن ذاكرته بالكلام دون ان تحرك عقله بالاشياء والتجارب · فيحفظ الطفل الالفاظ ولا يرى الاشياء بل يبتعد عن التجربة ثم اذا خرج من المدرسة حافظ على احترام الالفاظ وعبادة الكلام فيكلمك وانت تظنه يفكر وهو يردد افكار غيره ويرن كما ترن الآلة ، لان الالفاظ لاتغذي العقول ولا تفتق الاذهان بل تخلق اشخاصاً مقلدين ليس لهم قوة على الابداع ولا ميل الى التجديد ·

جميل صليبا

٢٨ — ان لم تكف عن هذا الكلام

بارت قريتك

قال السبكي : ذكر الزبير بن بكار ان بعض المتقعرين كتب الى وكيل له بناحية البصرة : « احمل الينا من الخوزج والكنعد المقورين والإوز المهموج ، ولحم مها البيد مايصلح للتشرير والقديد » ·

فكتب اليه وكيله : ان لم تكف عن هذا الكلام بارت قريتك فان الفلاحين ينسبون من ينطق بهذه الالفاظ الى الجنون ·

جئتك ...

روعة سليم يونس



جئتكَ
جئتكَ من زمن بعيد
تكسرت فيه أجنحة الطيور
سكنت الاوهام دربي
وأمطر قلبي غيوما سوداء

جئتكَ
وقد أوصدتْ كل البوابات في وجهي
وفي وجهي يرتعش طيف الخوف
يزحف اليك قلبي
يدفعه الشوق
ويشله رعبي

جئتكَ
لتنتشل من مخيلتي عش المخاوف
ومن زمني الالتفات للوراء حيث الخوف يرابط
جئت
لتمنحني الصبر وحنان طير لم تقص
له الايام جانحين

جئتكَ .. نعم جئتكَ
وجئتكِ يا دمشق
بهواجسي .. وهواجسي
صورا ملأت الجدران
قناديل أينع فيها الظلام
جئتكِ يا دمشق ..
ولست أدري من ذا الذي استولى على نبضي
أنتِ أم هو
جرأتي أم الخوف من دربي . . ؟ ؟

إلى روح الشاعرة الحزينة
عزيزة هارون

أحمد الجندي

جزع القريض وقد اردت رحيلا — وبكى الخيال وقد نويت افولا
يا وردة ذبلت وظل أريجها — يروى قلوبا بالهوى وعقولا
ما أقصر العمر الخصيب وأجدر العمر الوريف بأن يكون طويلا
قدكنت ربا بالجمال ندية — فعلام عاجلك الشقاء ذبولا
تتأملين ولا ترين سعادة — ولقد قضيت ولم ترى مأمولا
لم تجمعي مالا ولم تلقي هوى — يرضي صباك وكم صنعت جميلا
وسعيت حتى كان سعيك فاشلا — وخشيت لكن ما اهتديت سبيلا
فوقعت في الحرمان يقتلك الاسى — ندما امات رجاءك المخذولا
في غرفة لم تحو ضوءا مشرقا — الا القصيد وشعرك المسدولا
ما أصعب الاخفاق في زمن الضبا والعمر طلق ومايزال ظليلا
يمشي المؤمل والحياة تعوقه — فيسير مضطرب الخطا مغلولا
ظمآ يعيش يصدره ففؤاده — غصان يركض في الشقاء عليلا
وكأنما العيش الهنيء غلالة — يسعى لها من لايريد وصولا
أعزيزة الا صحاب عمرك دمعة — حري وشعرك لم يزل ترتيلا
أنشدت احساسا وقلت رهافة — وشدوت قمريا يذوب نحولا
وتغنت الدنيا بآهات الهوى — ترويها شعرا أغر جميلا
يافتنة ذهبت كما ذهب الصبا — وغمامة هطلت اسى وغليلا

قد كان حزنك من أناشيد الاسى نغما نديا بالحياة بليلا

لم تذكريه وظل شعرا خالدا يبقى على تعب الحياة دليلا

أني لأذكر يوم جئت وللضنى في مقلتيك جوى يلوح ثقيلا

تتبسمين وفي ابتسامك غصة وتحدثين مرارة و ذهولا

وتصافحين وفي اللقاء ملالة ملكت شبابك فاستحال ملولا

وحلمت بالعيش المريح لعله يرضى هوى في الصدر بات كليلا

وشجتك آمال كأحلام الصبا تركت فؤادك حائرا مشغولا

من عاش في ظل الشقاء وجوره نسي الهناء ولم يجد تعليلا

حاولت دهرك وانثنيت جريحة كالفارس المقهور خر جديلا

وسعيت واهية الجناح حمامة ملأت ديار البائسين هديلا

فاذا الحياة لديك حلم مرعب جعل الحياة خرائبا وطلولا

وكأن عمرك قصة محزونة تروي اساك مشاهدا وفصولا

ياليت شعرك كان خطا نافعا او كان حزنك هادئا معقولا

لا تجزعي فالعمر شيء تافه يمضي بطيئا او يمر عجولا

والفن في شرع البلاهة وصمة وحماقة ان لم يكن تدجيلا

قدمت والشعر الذي أنشدته سيظل في شظف الحياة مقيلا

وأنا الحزين وقد بكيتك جاهدا لو كان يجديني البكاء فتيلا

مانفع دمعي بعد ان ذهب الذي ابكي ومادام الزمان بخيلا

لو أستطيع جعلت دمعي مشرعا يروي ترابك بكرة وأصيلا

قسما " سأذكر ماحييت صداقة نديت ورقت كالنسيم عليلا

وسأذكر الصوت الحنون كأنني ما زلت أسمعه يمر خجولا

قد غاب أصحابي وبت معذبا " ألقى الاذى ومصيري المجهولا

من عاش في ظل المحبة والمنى وجد الفراق سماجة وفضولا

الاديبة وداد سكاكيني تكتب عن :

رحيل الشاعرة عزيزة هارون

في الثاني عشر من شباط الحالي رحلت الشاعرة عزيزة هارون تاركة وراءها مجموعة كبيرة من المقطوعات الشعرية التي لم يتح لها ان تصدر في ديوان على الرغم من ان الشاعرة الراحلة ظلت تعيش في محراب الشعر قرابة خمسين عاما ..

وقد اردنا ان نقدم لقراء نادي الاصدقاء من جيل الشباب اصحاب المواهب الواعدة لمحة عن حياة الشاعرة فطلبنا من رائدة اديباتنا الاديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكيني ان تكتب لنا عن حياة الشاعرة فاستجابت مشكورة بكلمة عن التي اسمتها « الشاعرة الملهمة والصديقة الصادقة » ..

غيب الردى منذ ايام مربية شاعرة ملهمة كانت تقول الشعر على الفطرة وسجية الالهام وكانت صادقة مع نفسها ، ومع احبابها ما نكثت عهدا لاحدهم وما اغتابته او شاركت في ايذائه وكانت ترد الاذى عنهم وتحفظ عهودهم ومواثيقهم وماعرف وجهها زيفا في تطرية ولا تكلفا في بشاشة ، هو وجه الشاعرة الملهمة والصديقة الصادقة عزيزة هارون التي انبتتها لاذقية العرب نباتا حسنا وفيها تلقت علومها الابتدائية فقط .

اوتيت منذ الصغر موهبة الشعر فكانت تقوله عفو الخاطر وعلى سجية الالهام مقطوعات وابيات ولاتحسن نظم القصائد لانها لم تتعلم القريض واصول النظم .

وانتقلت الى دمشق حيث كانت الحياة الادبية مزدهرة فاقامت فيها عند . سيدة فاضلة وبغرفة واحدة وفرت لها اسباب الراحة حتى انها كانت تأكل من طعامها ولم تكن عزيزة هارون تعتمد في معيشتها الا على نفسها .

احبت المهرجانات الادبية والمؤتمرات التي كانت تقام لتلقي فيها مقطوعات من شعرها بنبرات سابية وشاركت في مؤتمر بلودان للادباء العرب عام ١٩٥٦ . وفي مهرجان الشعر الذي اعقب مؤتمر الادباء العرب في ايلول ١٩٦١

كما رافقت عزيزة هارون الوفد الثقافي الى موسكو عام ١٩٥٧ ..

وعرفتها مصر في مهرجانات لها كانت تقام للادباء فكانت عزيزة تلقي فيها من شعرها فيؤخذ الجمهور بجمالها والقائها .

وفي ايام الوحدة بين سورية ومصر اختيرت عضواً في لجنة الشعر للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية وكان اختيارها في اللجنة بناء على اقتراح من الشاعر الكبير انور العطار .

وقد اسندت الى عزيزة في اذاعة دمشق وظيفة امينة مكتبة فكانت تقدم فيها برنامجا خاصا بها كانت تلقي فيه موضوعات من اختيارها وفي اتحاد الكتاب العرب كانت عضوا

عاملا في لجنة الشعر ، كانت عزيزة هارون تستحسن بل تفضل القاء شعرها بنفسها على نشره في الصحف والمجلات وبخاصة في منتدى سكينة لمؤسسته ثريا الحافظ .

عاشت ثلاثة وستين عاما وكانت تنتظر ان تنشر هذا الشعر بنفسها فأبطأت وتريثت حتى سبقها الموت .

لقد افتقدها اصدقاؤها وبكوا فيها شمائلها ومحاسنها . وزهادتها في المال ولابد ان يقيم اتحاد الكتاب العرب حفلا لتأبينها في دمشق او اللاذقية ولابد أن يطبع لها مختارات من شعرها في ديوان

وسيذكر الناس عزيزة هارون التي كانت شاعرة ملهمة وصديقة صادقة مخلصة كما كانت بارة بأهلها وبوطنها وبالعروبة التي تجسمت في شعرها وفي سلوكها ..

● وداد سكاكيني

المراثي

د. ناديا خوست

توفيت الكاتبة سنية الصالح وهي تحلم ببيت دمر. يوم عودتها من السفر مرة، سألت : ما حال البيت، الى اين وصل،؟ وتوفيت الشاعرة عزيزة هارون وهي تحلم ابضا ببيت دمر . سألتني عندما صادفتها في اتحاد الكتاب : تعرفين في اية حال اصبح بيت دمر ؟ عندك عنه اخبار ؟ عندئذ بدا اننا نسينا طرازا من الحياة فيه احلام اخرى، فيه امور منها الحب والنزهة ايام العطلة ، لون السماء، الفصول ، ايام القمر والزهر.

هل كانت الشاعرتان تفكران بما يستهوي المرأة ، البيت المرتب في ذوق ، والغرف التي يكون كلما فيها في مكانه المناسب ، وحديقة النباتات بدلا من العالم المفقود . فيحط ابطال القصص والشعر في مكان حميم.

كانت سنية تفكر بان تؤجر البيت سنوات ريثما يستقيم اقتصادها الذي اجهزت عليه اقساط البيت. وربما حلمت بان تشتري ثوبا تمنته، او مكتبا حلمت بان تجلس اليه وترتب فيه ما تناثرمن اوراق . ولوحة تفتح لها الافاق ، تطل بها على مروج لم ترها بعد. ربما حلمت ، من خلال البيت ، بسعة لم تذق مثلها بعد تنفض بها ما ينهك القلب : ان الانسان يفوت ابدا ما يركض إليه. يأتيه الحب في زمن اوصد فيه ابوابه . وتأتيه قبضة المال فتبتلعها الارض..

وها هو البيت ! حلم يصبح كابوسا . فتعجب من مصير الاحلام في الشرق !! ويصبح امامك ما قاله كاتب افريقي : «آه يا بلدي ، كم تقلقني ! ازرع فيك القمح فاحصد الكوسا» . فسبب السعادة يصبح سبب الشقاء. ويصبح خسارة ما تصورته كسبا. ترفع صورك الملونة كالراية ، فاذا بك تتوكأ عليها كالعصا ، . وتوسع في الشباب مكانا لأمر فلا تطاله حتى في الكهولة . فتكاد تطلب حياة ثانية، لان هذه الحياة مرت تجربة . تشد فيها زمام القدر في قبضتك . فاذا بك مسير في قدر لم تتنبأ به.

لو وصلت عزيزة هارون الى بيت الجمعية ، لو استلمته قبل الموت ، لسكنته ولو ضيقت على نفسها في الاكل . ولربما جعلته دخلا يرمم الراتب . لكن الحلم صار كالعربة التي صممت لتركبها ، فاذا بك تدفعها طول العمر.

كانت عزيزة هارون شاعرة رائدة ، . ولعل حياتها كانت غنية . اذكرها في حفلة ، ذهبية الشعر ، عليها ابتسامتها الخالدة رقيقة ، عذبة ، كالجنيات في الحكاية. تجلس في الصف الاول في القاعة فتزينها .يقترب منها الناس ويسلمون عليها. يلمس احدهم يدها كمن يلتمس البركة. تستقبلك في بيتها فتسحرك بطلعتها ، بشكلها الشمالي. كم بهرت يوسف ادريس يوم دعتنا ثريا الحافظ الى منتداها. كانت دائما متوجة بقوس قزح الملون الذي يزين الشاعرات في تاريخ الادب. فاتنا لكنك قد لا تمسك به وقد تعيش تحته تعيسا، دون حب كبير، دون شجار المحبين وسعادتهم ، دون لغو في البيت تمل منه وتشتاق اليه. ردت عزيزة هارون وهن العمر، قدر ما تستطيع نفس متماسكة وسمحة. ردت ما يفتك بالمرأة الوحيدة. وظلت تجني الاحترام والمحبة. لكنها لم تجن بيتا. فكانت في ايامها الاخيرة، في غرفة عند جيران يجلسون معها اذا استقبلت الضيوف ، ويساهمون في الحديث. وكانت من امتعتها القليلة ، صورة الشباب البهي تتصدر الغرفة.

ربما يجب ان نرثي عزيزة هارون رثاء اخر! وخضرة الصنوبر تلوح في دمر، والثلج على الجبال حولها ! لكن الحياة تقدم لنا التعبير الاخر. فنتجاوز العواطف الى امور الدنيا، التي يجب ان يكون الكتاب اكثر سعة منها. فقد نرثي غدا كاتبا لانه مات من البرد ، ونرثي اخر لانه مات من الشوق الى ثمار الموز ، وقد نرثي كاتبة لانها هاجرت من اسطورة كانت فيها حواء التي تمسك بالتفاحة ،. وقد يصبح الرثاء عتبا على الكاتب لانه ترك اصدقاءه ونجا بنفسه . وقد يضطر النقاد ذات يوم الى البحث في هذه الهواجس واثرها في المراثي وفي الادب.

د. ناديا خوست



ورحلت عزيزة هارون

• الشاعرة التي أعطت ولم تأخذ
• لاحاجة لرثائها إنما بحاجة لاستذكارها

ماتت عزيزة هارون ، واحدة من الشواعر اللواتي أعطين الأدب الحديث الصورة الشفيفة ، والدفق الوجداني ، وعذوبة الجرس . ماتت عزيزة هارون وكانت اشعارها بوحا كخفق جنح الفراشات وهي تغازل الاريج ولاتريد جناه بقدر رغبتها في العيش على افياء بوحه ..

سكتت الشاعرة التي كانت تهمس الشعر ، فتحرك في النفس شجن الوحدة تارة وصوفية التوحد تارة اخرى ، وطلاوة حلم طالما تمناه المرء في صخب دواخله .

عزيزة هارون امرأة اكثر منها موقفاً وملهمة اكثر منها شاعرة عاشت ترفها الصاخب وماتت بصمتها المرير .

كانت احلامها بعيدة المنال لذا رسمت دواخلها على شفاه الورد واجنحة العصافير وابتسامات الطفولة التي شاء قدرها ان تكون لها محال .

كلهم أحبها ، ولم تحب احداً منهم ، لان ماأرادته لم يكُ متوفراً قط إلا على جدران عقلها الباطن .

وددت لو ان حبيبي
ساحر لمّاح
يطير بي في غيمة سحرية الجناح
وكلما أسكرته
طرت مع الرياح
يبني لي القصر الذي يعشقه قلبي
أنعم في أفيائه
بالدفء والحب
منثورة أحلامه
شهباً على دربي
وان ذكرت عالمي
وماجنى عليّ
يضمني بلهفة
تردني إليّ
ويمسحُ الدمع الذي يحرق مقلتي

تزوجت من الشاعر نذير الحسامي فانشدا معا السعادة ، لكن الهناءة لم تدم .

فآثرا الانفصال ، وذهب كل في طريقه ، لانهما لم يرزقا باطفال ، وبعد عزلة مع الذات تقنع الشاعرة نفسها بان حنان الزوج يستطيع ان يعوّض عن حنان الطفل ، وان كان كذلك فلابأس من الاقتران برجل لايسألها طفلا ، وهنا آثرت الشاعرة الزواج برجل يمتلك المال والبنين والمنصب واللقب والجاه ، وهكذا تتزوج من رجل آخر يكبرها باعوام كثيرة .

ولم يمض وقت طويل حتى تدرك عزيزة هارون بحسها الشعري أن الذي تبحث عنه ليس ماهي فيه وتفترق عن زوجها :

وددت لو يحبني
لأعرف الحياة
لأسكر النجوم والقمر
لينبت الزهر
في قلبي المحب
وددت لو يحبني
تراه يستطيع
أن يحبني
ان يبهر الحياة
في سري المخضل
بالدمع والعبير
أحسني أطير
حدثني في مرة وقال :
بانه يحب في وثبة الخيال
وأني أرفل بالجمال
وقال لي وقال :
تراه هل يحبني .

تعويض الطفولة بفيض من الحنان والانفلات من اسار الحياة القاتمة كلاهما خصوبة ، فلنبذر الطفولة في أخيلتنا ، ولتتجب النساء فالشمس تطلع كل يوم .

وتقترن ثالثة ، ولايدوم ذلك الاقليلا ، وأخيراً يسبقها الحزن فتنفتح على الجو الادبي فترة قصيرة تشارك في الأمسيات والندوات والمهرجانات .

تغني عبر الأثير للأطفال الاطفال ، وللأطفال الكبار ، للفرح الآتي ، لليأس الكامن توأ ، للحزن التوأم ، ولم تكن عزيزة بعيدة عن اليأس ازاء الاحباطات الوجدانية تصرخ بملء فيها : تنشد النهاية ، هكذا :

متى ياتراب
تضم كياني بغير عذاب
صحارى حياتي
يباب
وحولي عواء
ذئاب
متى ياتراب

عزيزة هارون تلتقي مع جمهور الشعر في أمسية هذا اليوم ، وتغص القاعة بالجمهور ، لاليسمع شعر عزيزة هارون ويتملاه ، انما ليشاهد عزيزة هارون ، ليتلذذ بالقائها الهامس ، حتى ليخال كل فرد من الحاضرين انها تنشده الشعر لوحده .

وتتلقى عزيزة هارون مئات الرسائل المغفلة من التواقيع ، بعضهم مراهق يعرض عليها الزواج ، وآخر هاو يريد جلسة في

محراب شعرها ، وثالث مدع يريد حواراً لصحيفة أو مجلة .
وعزيزة وحيدة تجتر آلامها في غرفتها البسيطة ، مع جارتها العجوز التي اسكنتها وحدبت عليها اشفاقا على روعتها وطيبتها ورقتها .
كانت الملهمة التي أعطت الشعر العربي السوري من خلال هيام الشعراء بها اروع قصائد الغزل ، فخلدها ماقيل بها اكثر مما قالته هي ، فشقراء والى ملهمة ، رائعتا الشاعر البدوي كانت لعزيزة هارون ، واجمل قصائد جيله كانت بها .
لقد عرفها نادي سكينة الادبي بدمشق ، شاعرة وملهمة وجمهور شعر متذوق .
عرفناها في الجامعة وهي تشاركنا أماسينا الادبية .
وللتاريخ يجب ان نذكر ان اكثر جيل كلف بها هو ذلك الجيل الشعري الذي حمل مشعل الرومانطيقية في الشعر أواخر الخمسينات واوائل الستينات اذ عشقها « انثى » وأبدعها ملهمة فكان عطاء ثر للشعر الغزلي للوطن العربي عموما وفي الوطن العربي السوري على وجه الخصوص لقد شابهها بعضهم بمي زيادة وقال اخرون انما هي فدوى طوقان وقالت فئة ثالثة هي لميعة عباس عمارة ، لكن الجميع كانوا يتجنون على الحقيقة ، فهي عزيزة هارون ليست الا .
ان ماقدمناه عن الشاعرة الراحلة التي تكالبت عليها الامراض ليست مرثاة لشاعرة رحلت .. انما هو مرثاة لعالم الشعر الذي نعيش ازمنة انهياره وفضائحيته .

منذ فترة طويلة احتجبت عزيزة هارون عن الانظار ، وقد تكالبت عليها الشدائد ، وتضافر عليها المرض ، فكانت تشكو آلام عظامها والسكر والمعدة وأمراض أخرى ، كان أهمها الوحدة والاهمال .

ففي الزق الذي كان يتهاتر به الشعراء ، يتعاركون على اسبقيات الفضائح يتصايحون ، يتشاتمون ، يسبغون على بعضهم الالقاب السالبة والموجبة تنطفىء شمعة في مشفى من مشافي دمشق وفي تمام الخامسة من مساء يوم الاربعاء الثاني عشر من شباط عام ١٩٨٦ وفي زوايا الصحف ننعي عزيزة هارون ولم يكلف احدنا نفسه مشقة زيارتها ، عيادتها ، تبديد وحشتها ،

مواساتها في محنتها ، لكننا وكالعادة بعد وفاتها ننتظر مقولات الرثاء واشعار التأبين ودراسات الباحثين :

مادمنا نرقص فوق الجثث القتلى
مادمنا نأكل من عفن الارض
مادمنا لانعرف كيف الرفض
سنموت بنار الحقد ونار البغض
ماقيمة هذا العالم فينا
لن نرويه ولن يروينا
ان لم نخلقه من دمنا
ان لم نبعثه مزدهراً بالحب
أطفال الرعب يتامى
لاتسأل عن اطفال الرعب
دمهم قنديل الدرب
وأمامك تلك الدرب

● وليد مشوح

الى الشاعرة عزيزة هارون

ماتت ، كما مات الصباح ... ماتت ، وفي فمها الصداح
ماتت ، ولم يسمع لها ... صوت ، ولم تشهق جراح
فكأنها أحباب قلبي ، عندما ولّوا ، وراحوا ..
وبكيتهم ، وبكيتهم ... أترى يضيق بي النواح ... ؟
يا وردة ماتت أغاريدا ، وهزتها ... الرياح ...
والمترفون ، الساهرون ، .. هناؤهم أبدا متاح ...
وبرتك ألسنة الجناة ، وعضك الزمن الوقاح ...
هيهات بعدك أن يطل هوى ، ويخضل السماح ...
قولي لهم ، أني أموت ، أموت ، .. وليعل النباح ...
دنياي أغنية ، وفي عيني يأتلق الطماح ...
وحياتي النغم المدلل ، والخمائل ، والبطاح ...
قولي لهم ، مات الصباح ، ولن يعود لنا الصباح ...

أنور الجندي

غياب الملاك الأبيض

كمال فوزي الشرابي

وردة شكسبير :

كانت تربط بين والدتي وعزيزة هارون صلة صداقة وود ، وكانت والدتي معجبة بجمال عزيزة الهادىء ، وأناقتها المتحفظة ، وأخلاقها الرفيعة ، وما دار الحديث يوما عنها الا قالت : " عزيزة .. انها وردة شكسبير " . وكانت تعني بهذه التسمية ما قصد اليه الشاعر الكبير في بيته الشهير : " الفضيلة للمرآة الجميلة كالعطر للوردة الناضرة " .

وكانت أمي تحب الشعر وتتذوقه وترويه ، وترى في عزيزة وهي بعد في بواكير عطائها ، شاعرة واعدة ينبض شعرها بالموهبة والصدق والعاطفة .

وحين كنت أذهب بين الحين والحين الى زيارة والدتي في اللاذقية كانت دائما تسألني عن صحة عزيزة وعن أخبارها ، وتحملني اليها سلاما أرق من النسيم الرخي على شواطىء بحرنا أيام الربيع ، وقد انتقلت والدتي الى جوار ربها في ٢٣ شباط ١٩٨٤ ، وبعد عامين تقريبا في ١٣ شباط ١٩٨٦ لحقت بها عزيزة على ما بينهما من فرق في السن ..

من ذكريات القيثارة :

في عام ١٩٤٦ حملتني الظروف الى اللاذقية بعد غياب طويل عنها كنت في معظمه أتابع دراستي بدمشق كان كل شيء في عروس الساحل وفي الجبال الاسطورية الملهمة التي تحنو عليها وعلى مدننا البحرية الجميلة يوحي بالشعر او ينطق به وكان عدد الشعراء المعروفين والمغمورين كبيرا ،قلت لنفسي: " هنا عبقر الالهام او هنا جبل البارناس .. وهنا يجب أن أسعى لاصدار مجلة تقتصر على الشعر والفنون الجميلة ، وتبرز المواهب الخبيئة ، وتشارك في دفع الحركة الشعرية و الفنية الى الامام .

تحت شعار الجدة والابداع :

وجمعتني المصادفة بفئة من الشباب المثقف الواعي ، ومع الايام توطدت بيننا أواصر المعرفة والصداقة ، وطرحت في احدى جلساتنا موضوع اصدار المجلة التي أحلم بها ، واقترحت أن يكون اسمها القيثارة على ان يتم تمويل اصدارها من قبلنا مبدئيا ومن قبل مطبعة الارشاد ومن التسديد الفوري لبدلات الاشتراك . فوافق

الجميع ، وعهدوا الي برئاسة تحريرها وبدأت في جمع مواد العدد الاول وترتيبها ، واتصلت بعزيزة هارون وأخبرتها بما اجتمعت اليه كلمتنا ، فرحبت كثيرا بالفكرة ، وكان مما قالته أنه يسرها ان تساهم في هذه المجلة ماديا وأدبيا علىندرة ما كانت تنشر ، آنذاك من أشعار .

وهكذا صدر العدد الاول من المجلة وهو يضم بين دفتيه قصيدة لها بعنوانها " خمرة الفن " في هذه القصيدة تبدو العفوية والعذوبة اللتان احتفظت بهما الشاعرة حتى في قصائدها الاخيرة ، كما يبدو فيها ما كانت تخزنه من ينابيع حنان لا تنضب ، وما كانت تكنه من حب للفن والشعر لا ينتهي وفيما يلي النص الكامل لهذه القصيدة :

أحنانا تهمي سليمى عليها
حفظ الله نور ذاك المحيا
ابذلي العطف والحنان كغيري
أنا نبع الحنان يامقلتيا
ان حزني لا كالهموم وجوما
هو يبدومقدسا عبقريا
ان بكت مقلتي وغص فؤادي
أبعث اللحن ساحرا علويا

أنا للفن مهجة وفؤادا
أتراني قدمت للفن شيا
ان روحي تذوب فيه غراما
وفؤادي يهيم في جنبيا
ايه يا أخت هل شربت بكأسي .
خمرة الكأس صافيا عذريا
اشربي خمرة الفنون هيا
اشربي قد عصرتها بيديا

*

ألفاظ سهلة مأنوسة ، وصور صادقة تنبع من القلب وتدخل القلب بلا استئذان ، شعرعفوي عفوية صباح صيفي يسكب اضوا ءه ، وتستقبله الشحارير بصداحها في أريافنا الساحرة ، انه صورة لما كانت تتسم به حياة عزيزة وشعرها من بساطة ورقة . وهل ثمة أجمل من البساطة والرقة في عالم مملوء بالتعقيد والقسوة ؟ ولشد ما تذكرني هذه البساطة بما كان يضرع به بول فيرلين ، الى الله قائلا : يا رب ، هبني البساطة ولا شيء سواها " .

شهادة أمين نخلة :

في مطلع الستينات كنا - بعض الزملاء والادباء وأنا - نسمر أحيانا مع الشاعر الكبير أمين نخلة ، وتطرق الحديث في احدى الليالي الى بعض شاعراتنا العربيات ، وحين أتينا على ذكر عزيزة هارون ابدى الشاعر " دفتر الغزل " ، اعجابه بسلاسة أشعارها وعذوبة افكارها وأصالة مشاعرها ، وعقبت أنا قائلا : أعتقد يا أستاذنا أن لك بيتا من الشعر ينطبق على شاعرية عزيزة ، قال : هات ، ذكرني به ، أجبت : ذاك البيت من قصيدتك الجميلة " ليل الكروم " وقد غنيت فيها :

أنظم الشعر مثلما يورق الغصن
اويهمي الندى ويسر العبير

فتبسم الامين - رحمه الله - وهز رأسه موافقا .

هموم الوطن :

لم تحمل عزيزة بقلبها الكبير واحساسها المرهف هموم الحياة المضنية فحسب بل حملت أيضا هموم الوطن ، وما أكثرها ، من منا لم ينفعل ويتألم لدى قراءة قصيدتها " المتسول " . . وسواها من القصائد الاجتماعية والانسانية ، كانت تحس ان جرحها عربي ، وتروح تبحث عن علاج، ولكن

الجرح يظل ينزف في كل مكـــان، وتتساءل لم لا يفجر هذا الجرح في الصامت في كل مكان . . :

ورحت أسامر جرحي
بكل لغات الهوى
فراح يئن ، ورحت أسائل
أين الدوا ؟
وجرحي أنا عربي السمات
وينزف - آه - بكل الجهات
فلم لا يفجر صمت الحقول
ولم لا يفجر صمت التراب
سألتك - يارب - ان تصنع
المعجزات ..
فكيف أصلي اليك
وجرحي صلاة ..

الظمأ الى الحب الانساني :

يتسم الظمأ الذي يعـــذب روح الشاعرة بالشدة ، والشمول ، أنه الظمأ الابدي الى مطر الحب الانساني الذي يروي وحده ، بغيثه العميم كل حبة تراب ، وكل مهجة عطشى ، وينهي رحلة العزلـــة والعذاب والشوق في متاهـــات الوجود ، لقد أحست الشـــاعرة قبل وفاتها بعدة سنوات بمزيد من الارهاق ومزيد من الوحشـــة حتى لقد تمنت ان تغيب كنسمة شاردة ، تموت في حضن الليل ؛

أغرق في الارض العطشى
يا مطر الحب
رو الدنيا كل الدنيا
واغمر قلبي
يا مطر الحب تعبت أنا
في صحراء العمر
ماذا في الامـــر
لو فيت بجرح الليل
وشربت منه الويل ؟

غابة الحزن وغربة الروح :

ما من شاعر حقيقـــي الا ويشعر بغربة الروح فيقف أمــام باب الوجود يتساءل عن لغز الحياة والموت كما تساءل ايليا ابــو ماضي فيقصيدته التأملية الطويلة " الطلاسم " وعزيزة ، وان لم تسلك مسلك شاعر الجداول والخمائـــل ، الا أنها كانت تدرك أنها روح غريبة في هذا الكون ، وكانت تشعـــر بالتمزق والضياع في غابة الحـزن التي لا حدود لها ، وأكثـــر مـا تخشاه احتراق الشموس في هـــذه الغابة :

أظلل عينيك
يا غابة الحزن
بالغيم
اني اخاف احتراق الشموس
بعينيك

أجل مكانك هذا غريـــب ، يا عزيزة ، ولقد صمت صمت الليالـــي الطوال ، صمت بعد أن غردت أعـذب الاغاني ، وبعد أن أسكرت القلـوب والاذهان بأسمى المعاني ، .. ان ذكراك لمحفورة في قلوبنا حتـــى نلتقي ، وأن قصائدك لخالدة خلود الزمان ، لكأنك مللت ، يا أيتهـا الصديقة النبيلة ، من الشعـــور بغربة الروح ، ووحشة الوجـــود ، ونكالهم الاحزان ، وثقل الهمــوم ، وحقارة المادة ، وتفاهة العيـــش في هذه الدنيا الفانية ، فآثـرت أن تنشري جناحيك الابيضيـــــن النقيين ، وتنطلقي الى عالم النو والصفاء والبقاء ولسان حالـــك يردد مع الشاعر الكبير بودليـــر في قصيدته الرائعة : " الغريب " بعد أن يسأل عدة أسئلة ويجيـــب عدة أجوبة عمن يحب وعما يحـــب أولايحب ، في هذه الدار الزائلـــة إلى أن ينفي صلته بجميع مايتمسك به الاحياء من أشياء تقيدهـــم وتشدهم الى الارض :

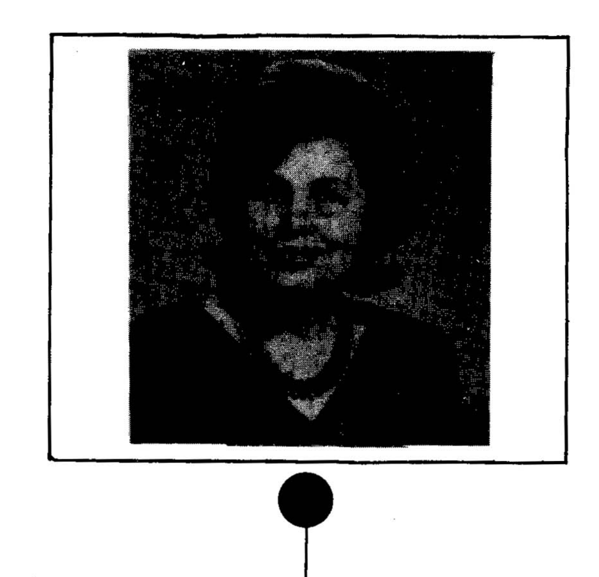
- ما ذا تراك اذن تحب ، يا أيهـا الغريب الخارق ؟

ويجيب بودلير او تجيب عزيزة :

- أحب الغيوم .. الغيوم التـــي تعبر .. هناك .. هناك .. الغيـوم العجيبة ..

١٩٨٦/٤/٢٣

الصفصافة التي هوت





تموت الاشجار واقفة ، لاتنحني للريح، وهكذا هو موت بعض الشعراء وقوفا دون توقف ، وامتدادا دون مدى وخضرة على مر الفصول والايام •

يقنعون بالقليل ، ويمنحون الارض والانسان اكثر من الكثير، يخلق الواحد منهم دنياه على الورق، يخلقها عالما من الاشجار والخضرة والازهار والطفولة ، الشوك يبقى في يديه، وللناس كل الظل والعبق •

ياسرهم عالم الكلمات بسحره وامتداده، فيظن الواحد منهم انه امتلك العالم، وانه بدا الان في تغييره وتشكيله من جديد، وفي نشوة الامتلاك هذه، والقدرة على التكوين، يصحو الشاعر على احتراقه، فيجد نفسه وحيدا في الاتون، وليس غير الموت•

بعضهم يكون الشعر عنده وسيلة ، وسيلة للرزق او المنصب او الجاه، يفكر في نفسه ومصلحته، والى اي مدى ستخدمه هذه القصيدة او تلك، قد يحقق النجاح الاني — وغالبا مايحقق ذلك — غير انه في المحصلة يخسر نفسه، ويخسر الناس الذين جاء من بينهم ويخسر الشعر ايضا •

عكس هؤلاء وعلى امتداد الوطن العربي والعالم شعراء مافكروا بانفسهم وبمصالحهم الذاتية قدر مافكروا بالذين من حولهم، جعلوا من الشعر قضية حياتهم، ووجودهم لا من خلال فردية مغلقة او تهاويم عائمة، وانما من خلال الالتزام بقضايا الانسان والوطن • دخلوا محرقة النار ومالانوا او انحرفوا وما اعلنوا اكتواء الذات، طالما انه يفضي الى تجميل صورة الحياة ، والى تغيير العالم نحو الافضل، كان الشعر قضيتهم وهموم الناس محور هذا الشعر كان الشعر مبرر وجودهم على ارض وبين الناس فاخلصوا للشعر، وللناس والحياة والوطن •

بعضهم مازال يعيش، وبعضهم قضى، غير انهم جميعا احياء في ذاكرة الشعوب •

ومن هؤلاء صفصافة باسقة ، شمخت اواخر الاربعينات وفي الخمسينات والستينات نشرت ظلالها الوارفة فوق ارض هذا الوطن، لم تبخل على الناس بالكلمة الدافئة الحنون ، ساعة يحتاجون للدفء، لم تبخل عليهم بالكلمة الرصاصة ، ساعة يحتاج الوطن الى مثل هذه الكلمة ، وكان صوتها من اذاعة دمشق محطة دفء وحنان، وكان صوتها من اذاعة دمشق مثار نخوة وحماس، ظلمت نفسها كثيرا — حتى انها رغم طول الرحلة لم تجمع شعرها في ديوان ، ظلمها ابناء جيلها واللاحقون ايضا، هي ذي صفصافة الشعر التي هوت منذ ايام هي ذي الشاعرة الكبيرة عزيزة هارون ، التي لاتقل مكانة ، ولايقل شعرها اهمية عن زميلاتها شاعرات الوطن العربي كنازك الملائكة وفدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوسي وملك عبد العزيز واذا كان النقاد والدارسون يشيرون الى زميلاتها وشعرهن في كتب النقد والدراسات الادبية فلانهن استطعن نشر شعرهن في مجموعات شعرية اوصلت اصواتهن الى كافة ارجاء الوطن العربي، بينما زهد عزيزة هارون وصل بها الى حد جعلها تقل في النشر وتصرف النظر عن طباعة ديوانها الذي اسمته «غنيت» منذ عشرين عاما ونيف، ولم تجد معها كل محاولات التشجيع وحفز الهمم• قصرت كثيرا في حق نفسها فبادلها الاخرون نفس التقصير، واثرت في السنوات الاخيرة حياة الانطواء والعزلة رغم وجودها وسط دائرة الضوء •

قد يكون للنقاد والدارسين عذرهم فليس لعزيزة هارون مجموعة شعرية مطبوعة فاستبعدوها وعتموا عليها، غير انني لااجد اي عذر لجهات مسؤولة كوزارة الثقافة والارشاد القومي او اتحاد الكتاب العرب ان لم تسارع احدى الجهتين على تشكيل لجنة تتولى جمع شعر الشاعرة ومن ثم اصداره في ديوان تخليدا لذكرى شاعرة مجيدة ووثيقة جديدة تطرح بين ايدي الدارسين لرد الاعتبار •

وَهج الألَم

فاديا شحيبر

وماتت عزيزة هارون ..
كانت عزيزة على قلوب الكثيرين ، حملت خبر وفاتها باحثة عن الكثيرين الذين عرفوا الشاعرة الرقيقة ، ذات الحس المرهف .
قالت صاحبة المنزل : هذه هي غرفتها ، ولكن بيتي كان كله لها .. كانت تنام في هذه الغرفة ، ولكنها تستقبل زوارها في غرفة الاستقبال ، وتجلس قبالي على هذا المقعد طوال السهرة ، كنت سعيدة بعشرتها ، الا في لحظات الالم الذي كان يصعقها بتياره فجأة ، فاسمعها تردد :

متى يا تراب
تضم كياني .. بغير عذاب
(تراب - ١٩٦٢)

نظرت الى صاحبة المنزل ، فوجدت أمامي ، امرأة مسنة ، تفوق عزيزة سنا ، وتقل عنها ثقافة ، ودراية بالحياة ، وقامت بينهما صداقة مع وجود هذا الفارق ترى هل وجدت عزيزة في صداقة ورعاية تلك المرأة اما ثانية ؟ وهي الانثى التي فقدت صلتها بأمها منذ صغر سنها ، بسبب زواجها الاول المبكر ، فقد اخرجت فتاة المرحلة الابتدائية من المدرسة ، ودفعت الى ابن احد الاغوات في اللاذقية لتصبح زوجة له .

ولكن لصوص الحياة
استبدوا بكل الضياء الثمين
وكنت أغني .. وأبكي ضياعي
بذوب الحنين
(تراب - ١٩٦٢)

وحرم الزواج المبكر عزيزة هارون ، من متابعة الدراسة والتعليم ، فبقيت ثقافتها صنع جهدها ، يدفعها الى القراءة موهبة شعرية فياضة ، فهي شاعرة بفطرتها ، تبرعم الشعر على لسانها وهي في سن مبكرة ،فموسيقى الشعر تنبض مع خفقان قلبها ، وتتولد المعاني في فكرها ، بدفق من احساسها المرهف بألوان الحياة القاسية ، ومن نفسها الرقيقة التي كانت ترصد مظاهر المجتمع فتكتشف عيوبه ومآسيه .

غدا في غد
سينبض قلب الحياة الصدى
بشعر ندي
غدا لن ترى ألف طفل شريد
بكل صعيد
وأناتهم من بعيد
تذيب الجليد
وألف مهاة تبيع صباها
لتحيا حياة العبيد .
(الغد الباسم - ١٩٥٩)

وقالت شهيرة السابق ، وهي مدرسة صادقتها في أيامها الاخيرة أمضت صديقتي عزيزة هارون معظم أيام سنواتها الاخيرة الثلاثة في المرض والالم ، فلم تكن تغادر المنزل الا لماما ، لتتدارك أمورها ، وتزور مخبر التحليل والطبيب ، وكانت تحدثني عن بيتها الجديد الذي ملكته أخيرا وفرشته على ذوقها ، وتمنت أن تقضي ما بقي من عمرها بين جنباته ، عمرا يتسم بالاستقرار والطمأنينة ، وكانت تتمنى لو يشاركها أنيس مسكنها ويزيل وحدتها ، فقد مقتت تلك الوحدة التي رافقتها طيلة حياتها في المنزل لانها لم ترزق بطفل يؤنسها ، وفشلت تجارب الزواج ، أكثر من مرة في ايجاد صيغة عائلية مستقرة .

الطفل طفلك أسعديه فأنت في
الدنيا رجاه
الحانه الجذلى تناديك وما أحلى
نداه ..

واسترسلت شهيرة السابق تقول : فجعت بنبأ وفاتها ، لأنني لم أتوقع دنو أجلها ، فقد كانت تعيش حياتها برغبة ، على الرغم من الالم الذي عايشته سنوات طويلة

تألق الحزن فيعيني ملحمة
والمعت بربوع الفن أفناني
غفرت للالم العاتي توهجه
ورحت أنثر في التاريخ الواني
(اليوبيل الفضي لتكريم ثانوية جول جمال في اللاذقية)

ودخلت بيت ثريا الحافظ ، البيت الذي كان مركزا لمنتدى سكينة ، وطالعتني السيدة ثريا الحافظ بوجهها الضاحك ورحبت بي وعلا الحزن وجهها حين سألتها عن رفيقة حياتها الشاعرة عزيزة ، فقالت بأسى :

صعقني خبر وفاتها ، وشتت نفسي ، فقدكانت عزيزة شاعرة المنتدى طوال وجودي المنتدى ، كانت صديقة بل أكثر من صديقة ، لم أعرف لها انتماء ، ولكنها تأثرت باحداث النضال في بلادنا وتعاطفت معها بشاعرية صادقة ، فكتبت الى المقاتل العربي :

سأسكب شعري اليك قصائد حب ولحن
زياده
رجوت بك العز ، عز الحياة فأنت
من العزم ، عزم الارادة
فخذ نور عيني بكفيك واملأ حياتي
سعادة ..
فياسيدي انت نبل العطاء وأنت
الحياة وأنت السيادة ..
(الى المقاتل العربي ۱۹۷۳)

وأنشدت تقول :

فهلم نروي الارض الظمأى
ونساعد في البنيان
وليكبر فينا الانسان ..
انسان الارض العربية
(الشمس الذهبية ۱۹۷۸)

وحين تضيق دائرة العشق في قلبها ، من الوطن العربي الكبير ،يتفجر احساسها الدافيء الى دمشق ، فتنشدها قائلة :

دمشق دمشق اراك بقلبي
والمس وحيك في اغنياتي
وأني بقلبك جرح نبيل
وانك أجمل جرح بذاتي
اذا ما عرفت بحسنك انس
هموم الزمان وبؤس الحياة
(دمشق ١٩٧٤)

وتنشد تشرين الذي أهدى الاعياد لوطنها الذي أحبته بقصيدة تنهيها قائلة :

خذني الى عينيك عاشقة
فلقد أجن وأمنح العذرا
مذهولة ويدي على كبدي

وعلى جبينك قبلة سكرى
(أعياد تشرين ١٩٧٤)

استمعت الى السيدة ثريا الحافظ التي انشدتني بيتين حفظتهما عن الشاعرة عزيزة هارون وقل من يعرف بهما :

قبحت وجها يا رغيف
يا مرغم الحر الشريف
قبحت يا غدار كم
أفسدت من ذيل نظيف
(من أرشيف ثريا الحافظ)

ازداد اعجابي بالشاعرة عزيزة هارون ، من خلال أحاديث صديقاتها عنها ، فتابعت قصائدها المنشورة وسعيت من بيت الى بيت ومن مكان الى مكان ، لأفوز بقصائدها ، واعبر عن غناها في المواضيع .

عزيزة هارون شاعرة طرقت مواضيع من صميم الواقع العربي ، فانبثقت قصائدها من هموم مجتمعنا على اختلاف همومه وافراحه :

من فرحة الفقراء صغت قصائدي
من زغردات الريح صغت الميجنا
(من أرشيف ثريا الحافظ)

ان عزيزة هارون شاعرة ، تمثل حياتنا بكل أبعادها ، فلم تترك مناسبة الا وقالت فيها شعرا وحيت شهداء المعارك :

أشعلت من زهو البطولة ناري
ورسمت في اشعاعها أقداري
حررت نفسي والقيود ثقيلة
فحطمتها في صولة الاحرار
وعشقت أخطار البطولة طفلة
ولقد عرفت النصر بالاخطار
طوقت خصري بالرصاص اشده
(الشعر في المعركة ١٩٧٧)

هدأت روح عزيزة هارون بعدما زامنها الالم ردحا طويلا ، وصفعها بتياره بينما كانت ترمق العالم ، من خلال عين ناقدة ، تعتمد في نقدها على حس سليم مرهف وقلب مفعم بالعواطف .

وماتت عزيزة هارون ، وحزن الاصدقاء حزنا ممضا ، وعاشت عزيزة هارون في التراث العربي شاعرة ملهمة ، نسجت شعرها من رقتها ، وما يزال صوتها يدوي في آذان المعجبين بها ، فكانت جيدة الالقاء بصوت رقيق متميز ..

فاديا شحيبر

عزيزة هارون:
الرحيل.. ونص القصيدة الأخيرة

نعى اتحاد الكتاب العرب الفقيدة الشاعرة المرحومة عزيزة هارون عضو اتحاد الكتاب العرب التي وافتها المنية يوم الاربعاء ١٢-٢-١٩٨٦ في مشفى الشامي بدمشق.

كتبت الفقيدة الراحلة الشعر في سن مبكرة وبدأت تنشر منذ اوائل الاربعينات، وعملت منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٨٤ في اذاعة دمشق، في مجال اعداد البرامج والزوايا الثقافية. ساهمت في العديد من الأمسيات الشعرية داخل القطر، وفي بعض المهرجانات الشعرية العربية.

اختيرت في عام ١٩٥٨ عضوا في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الأداب والفنون..

وتقول الشاعرة الراحلة في حوار لي معها لم ينشر بعد:

« احببت الشعر الجاهلي، فتنت بشعر الصعاليك، أحببت شعر ابن ابي ربيعة، تأثرت بحواره الشيق الممتنع، وبعفويته المحببة، أعجبت بشعر المتنبي، وتأملت شعر أبي تمام. وأسرتني معانيه الخلابة لكنني أحببت جدا شعر العباس بن الاحنف وكان هذا الشاعر الرقيق العذب وما يزال حبيبا الى نفسي.

في شعري تتجلى كل تجاربي الوجدانية وأحزاني الانسانية..

أحببت وطني بكل قلبي وهزتني آلامه، فكنت أراه في قلبي وروحي.. وبالشعر الذي أحببته غنيت الوجود..

كتبت السيدة نبيلة الرزاز عن شعري في كتابها: « مشاركة المرأة في الحياة العامة في سورية »:

«لقد غنت الشاعرة عزيزة هارون الحب وانتصرت للبؤساء والكادحين وثارت على الفوارق التي تميز بين غني وفقير، ولقد برعت الشاعرة بشعرها الدافىء الغني بالحب العميق الهادىء، انه حب شاعرة. وقدمت نماذج من شعري »

في سنوات الصبا المقهور والمقموع تفجر الشعر في نفسي كما لم يتفجر أبدا، تفجرا ثائرا مقاتلا، مدافعا عن المرأة المظلومة، عن العاملة المقهورة، ورحت التهم الكتب لأغذي شاعريتي.

قرأت الكثير من الأدب المترجم شعرا ونثرا، وتوهج في نفسي الظمأى كل ماقرأت.



أخذ الشاعر العربي البحراني ابراهيم العريض من شعري قصيدة بعنوان « سؤال » وقصيدة بعنوان « دموع » وأدرجهما في كتابه: مختارات من الشعر الحديث

وتنشر « الاسبوع الأدبي » آخر قصيدة نظمتها الشاعرة قبل رحيلها المؤسف عن عالمنا. وتتقدم بأحر العزاء لاسرة الفقيدة ولرفاقها ورفيقاتها في جمعية الشعر باتحاد الكتاب العرب ولأعضاء الاتحاد في القطر، وفي الوطن العربي والمهجر

● أديب عزت



الوَردة الذابلة

عفيفة الحصني

لهفي على ورد يوارى حسنه أفق المغيب
أيموت عطر كان ملء الكون يحيا في القلوب ؟
أيموت انسان المحبة زانه الفكر اللبيب ؟
أين المواهب يا عزيزة أين ابداع الاديب ؟
ما مات من تخذ القوافي للروائع تستجيب
يا وردة هام القريض بعطرها حتى المشيب
واستلهم الانشاد والالحان منها العندليب
رتلت شعرا حافلا بشذا الانوثة والاريب
وعصرت قلبك أدمعا يبكي تباريح الغريب
كنت الغريبة في الدنى يا زهرة الترب الجديب
تحكي لنا آهاتك الالام والحظ السليب
ويجود ثغرك بابتسامات القناعة بالنصيب
جاء الربيع بلوعة وبحسرة الالم المهيب
يفضي اليك الشوق والاحزان يدميه النحيب
كنت الصديقة لزهرة ولعشبه الزاكي الطبيب
للياسمين وللبنفسج والقرنفل والغريب
يا منهلا يروي الأنسام الحب والفن العجيب
ويكابد الجمرات والانات في القلب الوجيب

أهديت للأم الحنون قصيدة الحب المهيب
فترنمت بغنائها الزهرات والغصن الرطيب
رتلت آي الحب للجولان والقدس السليب
ووهبت موطننا المفدى القلب والشعر الخصيب

أحبيبة الفيحاء كيف هجرت مغناك الرحيب
هلا سمعت هتافنا ملء الروابي والسهوب
يا زهر عطر رمسها بشذا المحبة للنسيب
فكلاكما همس يجود بروعة السحر العجيب

أعزيزتي طال البعاد وشاقني الصوت الحبيب
عهدي به في كل صبح للهواتف يستجيب
ما باله ينأى عن الاحباب يصلينا اللهيب ؟
هذي مشيئة ربنا من يدفع القدر الرهيب ؟

عفيفة الحصني

عزيزة هارون

شاعرة أبعد من العمر وأقرب من الروح

فادية الخشن

وحيدة ، وحيدة ، وحيدة
قصيدة تبحث عن قصيدة
فمتى يا تراب تضم كياني
بغير عذاب
صحاري حياتي
عواء ذئاب
وكل حيـاتي
سراب . سراب

هكذا اجتازت الشاعرة عزيزة هارون قطار حياتها دوامة من الوحدة والعذاب والارهاق والتعب ، دوامة عمر اشبه بجواد فارس نسمع ضربات حوافره ولا نملك لجمه .

لقد سجلت عزيزة هارون عمرها على ظهر القصيدة وكما املته عليها الحياة الموحشة الجحودة التي عاشتها اذكر انني:

قد سألتها ذات يوم بما تقيسين العمر ؟

فقالت العمر لا يقاس بتعاقب الليل والنهار العمر يقاس بضربات النبض ووقع القلب والتحولات . فذات يوم ساقف فلا اعرف نفسي في المراة ، المراة هذه التي تخون الجميع دون تاثر ـ تخون حتى الصبا والجمال .

سألتها في حينه ترى عندما تذبل الوردة هل يتغير اسمها ؟

ابتسمت ـ العزيزة ـ وقالت الا وردة الشعر لا يمكن ان تذبل او تتغير .

كان ذلك منذ ـ ٩ ـ سنوات في بيت شقيقها في الطلياني ، اما في لقائي الثاني معها في مكتبة الاذاعة والتلفزيون فقد ،

سردت لي قصة حياتها

فقالت لقد اوقدوا لي كل الشموع واحرقوا ورائي كل المراكب . كان عمري ـ ١٣ ـ عاما يوم جاء والدي وقال لي من هذه اللحظة انت مخطوبة لفلان .. كانت اعوامي ـ ١٣ ـ اضعف واصغر من ان تصمد في وجه اغراءات العرس والاضواء والبهرج والفرح والاغاني وتزوجته لاشرب اول جرعة الم ومع اول صرخة ادخلتني عالم النساء او عالم ـ الحريم ـ كما يسمونه ، واستطردت قائلة :

يبدو ان انكسار القلوب الكبيرة ـ الصغيرة كان اهون بكثير من تطويعها لقد كسروا قلبي بزواج مبكر غير متكافىء قاومته كيلا يشوه بي براءة الطفولة وجمال الصبا . وانتصرت ارادة الفتاة الشرقية ليسمى بعرفها الاخرين فشل الزواج ولاسمى مطلقة فلان وغيرها من التسميات التي تحمل خلفها اينما حلت .

سالتها عن سبب اعجابها بالشاعر العباس بن الاحنف وقالت :

انه اول شاعر عالمي نادى حبيبته بـ سيدتي كذلك لم يكن متعدد الحبيبات . كان رقيق الغزل ناعم العبارة صادق الغزل احب فوز كما احب اراغون الزا لكنه لم يتزوج ـ فوز ـ هذه .

وسألتها :

* ماذا قدمت عزيزة هارون الى المراة ؟؟

ـ لم اقف مكتوفة اليدين من مسالة بيع الفتيات فانشدت ـ

تبـاع
تباع . وكيف تباع .. ؟
كسقط المتاع
وتبكي التياع
ولكن
تبـاع
وتشهق في الموعد ، قبيـل الوداع
فأخت تنوح بطرف ندي
وام تلف عليها الذراع
ويأتي ابوها .. الشجاع
فينهـار كل امتناع
ساطعم هذي الجياع ..
لذاك تباع
ستلبس في المدن خير المتاع
وفي المدن خير ومال
هناك الجمال
دعوها تودع هذي التلال
وتمضي
فيخفت صوت الشهيق
سينحل ضيق
لذاك تبـاع

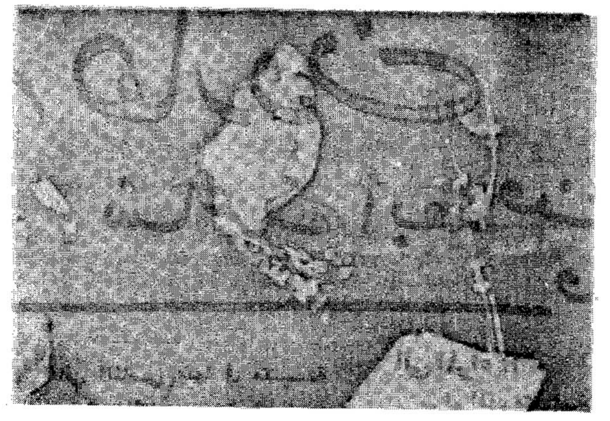
ماذا عن الحب

كلنا بحاجة الى القلب الذي يحب بعقل والى العقل الذي يحسب بقلب لان الحب لا ينمو الا فوق الشمس وعلى وجع النبض .

وكاروع ما تعبر انثى عن خواطر ندية وكاحلى ما يكون الحنين الى الحب . راحت عواطف الشاعرة تتدفق منسابة هفهافة مهدهدة الروح معاتبة اباها معاتبة الرمش للعين مشترطة بجراة بان ماتوده هو ندي كالصباح عبقا كالزهور

احس حنين الزهور لرشق
الندى

وان راح يومي .. اقول غدا
فيأتي الغد فلا موعد
فكيف البي نداء لحبي
وامي قد حدثتني حديث
حديث الهوى والدلال
فقالت تموت الصبابة بعد
الوصال
اذا ما يشم حبيبي عطري
ايذبل زهري ؟
وافقد عطري ؟



تتساءل عزيزة وفي السؤال استنكار كيف تفقد المرأة شرفها ان استسلمت للحب وصدقت مع الروح .

لقد كانت عزيزة هارون شاعرة عزيزة المطامح في صوتها طلاوة وفي حديثها حلاوة تجرات واعلنت عندما كانت الجراة قفزا على سياج مجتمع يمانع دون توقف .

*** اذن عاشت عزيزة هارون غربة روحية، ونفيت نفيا قسريا ؟**

** غربتي كانت مريرة في
بلادي
وجهادي عندما كنت صغيرة
يا جهادي
وبياض غاب في دنيا سوادي
الخرافات كثيرة
عصبوا عيني لم ار من الدنيا
سوى دار صغيرة
فتوغلت باحساسي ..
بقلبي والبصيرة
وعرفت الكون ..
الافا ،
واحفادا مريرة ..

وختمت حديثها ذاك اليوم بصوت دافيء وبهمس مخملي هو بحد ذاته قصيدة وقالت على الرغم من كل شيء علينا الا نتلذذ باكتشاف بؤس حياتنا فلا نتوقف عن العطاء وبالفعل فقد اعطت عزيزة هارون عصارة روحها ولم تتوقف ابدا لكنها لم تنشر شعرها في ديوان ولقد سوغت هذا الامر بقولها : ان شعوري اني قد تاخرت بطبع ديواني الاول كان تماما كشعوري بعدم ضرورة الاجابة على رسالة وصلتني من ٣ شهور ولم ارد عليها في حينه ، فالتاخير هو السبب الاول والاخير ليس الا .

لقد كانت الشاعرة عزيزة هارون شاعرة ابعد من العمر واقرب من الروح قص الشعر لها خيطه ، الحريري وادخلها في ملكوت النور والخلود ابدا .

الى الشاعرة عزيزة هارون

(الشاعر : أنور الجندي)

ماتت ، كما مات الصباحُ   ماتت ، وفي فمها الصُداحُ
ماتت ، ولم يسمع لها   صوت ، ولم تشهق جراح
فكأنها أحباب قلبي ، عندما ولوا ، وراحوا
وبكيتهم ، وبكيتهم   أترى يضيق بي النواح .؟

* * *

يا وردة ماتت أغاريداً ، وهزتها .. الرياح
والمترفون ، الساهرون ... هناوهم أبداً متاح
قتلوكِ آلاماً ، وآثاماً ، وناشتك الرماح
وبرتكِ ألسنة الجناة ، وعضك الزمن الوقاح
هيهات بعدكِ أن يطل هوى ، ويخضل السماح

* * *

قولي لهم ، إني أموت ... وليصل النباح
دنياي أغنية ، وفي عيني يأتلق ... الطماح
وحياتي النغم المدلل ، والخائل ، والبطاح
هم جرحوني بالنيوب ، فما استرحت ، ولا استراحوا
قولي لهم مات الصباح ، ولن يعود لنا الصباح

أنور الجندي   ٢٢ - ٢ - ١٩٨٦

ماتت شاعرة البوح

عيسى فتوح

أيها السيدات والسادة :

ما قاله اصدقاء المرحومة عزيزة هارون في أربعينها ، ليس الا غيضا من فيض ، وحسبنا أننا بهذه الكلمات القصيرة عشنا معها او عاشت هي معنا بروحها الشفلفة بوداعتها ، بدماثة أخلاقها ، برقة شمائلها ، بلطف طباعها ، لم نودعها يوم ماتت كما يودع الاصدقاء الراحلون ، لأنها بغتة ماتت ، وبغتة حملها الاهل الى اللاذقية لتوارى هناك قرب البحر الذي فتحت عينيها على زرقته الواسعة أول مرة ، ثم طوحت بها الانواء في كل مكان حيث اللاستقرار ، والوحشة والغربة والهموم التي تطارد الغريب ، وتسحقه حتى العظم ..

لقد فشلت عزيزة في حياتها الزوجية أكثر من مرة ، لأنها أرغمت على الزواج في سن مبكرة ، قبل أن تنهي دراستها الابتدائية فلم يمض الا زمن قصير على هذا الزواج غير المتكافىء حتى عادت الى بيت أهلها ، لتستأنف صحبتها مع الكتاب الذي أحبته فشغلها عن كل شيء ، وعوضها عن الزوج والولد .. راحت تقرأ الشعر وتنظمه وتتسلى به ، حتى غدت شاعرة مرموقة يشار اليها بالبنان ، يتسابق الناس على سماع شعرها الرقيق العذب في المنتديات او من وراء الميكرفون ويتهافتون على قراءته في الصحف والمجلات ..

ولدت عزيزة هارون ، في حي القلعة باللاذقية عام ١٩٢٣ ، وقالت الشعر وهي صغيرة ، ولعل ولعها بالشعر وانصرافها المطلق اليه .. وعدم انجابها الاولاد كان وراء اخفاقها المتكرر بالزواج ، رغم أنها تزوجت في المرة الثانية من شاعر معروف يقدر قيمة الادب ، ويرفع شأن الفن ، ويحترم المواهب .. ماتت دون ان تترك اي ديوان مطبوع ، وأذكر أنني كلما اجريت حديثا معها طالبتها بجمع شعرها ، واعداده للنشر ، فتعد الوعود ولا تنفذها ، وقد نشرت الصحف أكثر من مرة أخبارا عن قرب صدور ديوانها المنتظر ، او دواوينها لكن شيئا من هذا لم يحدث ولذلك سنعاني في جمع شعرها المتفرق ، ولم شتاته من الصحف والمجلات والاوراق الخاصة المتناثرة ما عانيناه في جمع شعر المرحوم محمد الحريري وفؤاد الشايب . وأرى أن يتنادى أصدقاؤها منذ الان لجمع هذا الشعر وترتيبه تمهيدا لطبعه . فلعزيزة جمهور عريض من المعجبين بشعرها العذب

الرقيق الذي يدخل النفس دون استئذان ويتغلغل الى أعماق الوجدان ..

نظمت عزيزة الشعر الكلاسيكي الذي كانت تلقيه في المحافل والمهرجانات الشعرية والمناسبات القومية والوطنية ، كما نظمت الشعر الحر القائم على التفعيلة ، وقد كان شعرها بشكليه الكلاسيكي والجديد صورة صادقة عن نفسها وقلقها وهمومها الذاتية وحياتها غير المستقرة التي كانت سلسلة من المآسي والاخفاقات ، حتى غدت كالقصبة الجوفاء في مهب الريح ، وكم تمنت أن يضمها التراب حتى تتخلص من القهر والعذاب ..

" متى يا تراب ؟
تضم كياني .. بغير عذاب
صحارى .. حياتي .. عواء ذئاب ..
وكل حياتي
سراب
بفجر شبابي .. ضممت الاغاني ..
الى النازحين ..
ضممت كنوز الجمال الابي
الى العارفين
ولكن لصوص الحياة
استبدوا بكل الضياء الثمين
وكنتأغني .. وأبكي ضياعي
بذوب الحنين
وكل انتحابي ذوى ،باكتئابي
وأغلقت بابي ..
متى يا تراب .. ؟

*

كانت عزيزة تحس بأنها سجينة في قفص القيود والتقاليد البالية .. تريد أن تعتق قلبها منعبوديته أن تنطلق في دنيا الاحلام أن تحب وتعشق وتغامروتكتب الشعر كما يحلو لها .. تريد أن تفجر طاقاتها ، وتهيم مع حبيب يبادلها المودة ، تطير معه في عوالم سماوية بعيدة عن مواصفات البشر ولكن :

" وهذي القيود بدربي
وأي قيود لقلبي
وقلبي يضم الوجود
وهذا الهوى كانطلاق العبير يثير
يسير ويأبى الركود
أطير بهذا الفضاء الرحيب
وأي حبيب يطير معي
ويهتف في مسمعي
أن أعود
أعود الى أين يا صاحبي
لأي مكان
وليس لقلبي زمان
وليس لروحي حدود
أعود الى الارض ..

لا .. لن أعود

*

وكما كانت عزيزة هارون شاعرة البوح والحب والجمال والتعبير عن الذات الهائمة بدنيا المطلق ، كانت أيضا شاعرة قضية ، وكماسمعت الجماهير العربية صوتها الدافئ وهمسها الحنون ، سمعت أيضا نبرتها الغاضبة ، واباءها الشامخ في كل المناسبات الوطنية والقومية من الوحدة بين مصر وسورية الى ثورة الجزائر والثورات الفلسطينية المتلاحقة .. وثورة الثامن من آذار والحركة التصحيحية ، والحرب اللبنانية ، وحملت الوطن في قلبهاهما دائما لا يفتأ يؤرقها ، ففي قصيدة " ثائرة تقول :

" ان في قلبي آلام بلادي
حزن قومي في فؤادي
ومتى يعبق بالطيب تنادي للجهاد
وكأن النار في قلبي تغني ..

ولهيب الثأر في اشعاع ناري
وأرى حلمي في ضوء النهار
يا رفيقي في المنى ، والوثبة
الحمراء .. هيا ..
انما الفجر تهيا
أعطني اليوم سلاحي
لا تبال في كفاحي
سأباهي بجراحي
انها ورد صباحي

*

وهللت للوحدة العربية عام ١٩٥٨ وغمرتها الفرحة الكبرى بهذا الحدث التاريخي العظيم فقالت :

" ماذا أرى يا موطني ماذا أحس
وأشعر ؟
قل لي بأن الوحدة الكبرى تعود
فتزهر ..
قلقي يهيم وليس لي الا هواك مسير
أهلي وأحبابي وخلاني فمن آثار؟
جرح ينام على العزاء وألف جرح
يسهر ..
في سورية قومي يثور على القيود
ويأزر ..

*

وهزتها ثورة الجزائر الظافرة ،فقالت في قصيدة " جزائرية في جيش التحرير "وهي تسترجع أمجاد خولة وبطولات جميلة بوحيرد ، ونضال أجدادنا العرب :

" لم لا أثور وكل شيء ثائر
ضجت براكيني وضج شعاري
أتهان في سجل الدخيل جزائري
وتذل في أعماقه أحراري ؟
أنا ثورة الدنيا على آلامها ،
أنا نقمة الدنيا على الاشرار ..

*

رحم الله عزيزة هارون ، فقدكانت شاعرة أحبها الجميع لوداعتها ورقتها ودماثة أخلاقها.. وألفتها .. ماتت وفي قلبها ألف غصة ، وألف مأساة ..

لم تقدر حق قدرها بل عدا عليها الزمان وجار عليها القدر ، وتكالبت المآسي ، فماتت حزينة كما عاشت حزينة..

*

عيسى فتوح

متى يا تراب

وليد مدفعي

فاذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولا يستأخرون ..

قرأت عن الموت في مناسبات كثيرة علمية وأدبية ، وحفظت في صغري قول طرفة ابن العبد :

فان كنت لا تسطيع دفع منيتي
فدعني ابادرها بماملكت يدي

ووردت في حداثة سني مع ابن الضبة بيته الصادق الشهير :

لكل جديد لذة غير أنني
رأيت جديد الموت غير لذيذ

وتقدمت الى الامتحان طالبا يحار في امتلاك الافكار التي تضج بها ابيات ابي العلاء الرائعة وخاصة حين ينشد :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب
فأين القبور من عهد عاد

وغير ذلك كثير في لغات العالم أجمع ، ففي مرثية " ماليرب " ، التي كتبها من أجل ابنة صديقه الصبية ، يقول ماليرب :

" الا ان للموت شراسة منقطعة النظير ، فمهما نتجه اليه بالرجاء يصم اذنيه عنا ، فعل الظالم المغمور ، ويتركنا نحار بالدعاء ، الفقير في الكوخ حيث يغطيه العشب خاضع لاحكام الموت ، والحارس الساهر على " اللوفر " يحميه ، لا ينقذ ملوكنا من سهام الموت .. الامتثال لمشيئة الله والالتجاء اليه يفيدانك الطمأنينة والسكون..

أيتها الاخوات والاخوة ..

ان الدقيقة التي تنوس بها الساعة الآن ، تساوي ألف سنة او اكثر من السنين التي مرت ، لان أمس في أذهاننا ماضي ، مثله مثل أي تاريخ قديم ، أما اليوم فهو رأس الزاوية التي نرى منها التاريخ كل التاريخ .

وقلائل هم الذين استطاعوا ان يجتازوا الزمن ، ليحيوا معنا وسيحيون مع اسلافنا منتصرين على خط الموت الذي يفصل بين اليوم والامس ، بين الحقيقة والوهم ، فهم اليقين الدائم في عالم مليء بالشكوك .

متى يا تراب ..تضم كياني بغير عذاب ..

باحت عزيزة هارون في هذا البيت بأمنية ، لتأكد لنا ان لا راحة لمؤمن الا بلقاء وجه ربه .

متى يا تراب .. تضم كياني
بغير عذاب ..

*

عرفت عزيزة هارون قبل ثلاثين عاما ، في منتدى سكينة ، وطالما استمعت الى قصائدها بعد ذلك ، في الندوات والسهرات ، واللقاءات الادبية ، وكنت أستمع اليها مع رهط الشعراء والادباء والكتاب ، بآذاننا الصاغية ،

وعيوننا المحدقة ، فقد كانت عزيزة طيف روح شاعرة ، صب في قالب امرأة جميلة ، فهي امرأة ساحرة الطرف ، فاتنة المبسم ، ذات نشاوى مسكرة ٠

ولقد تغزل بها معظم الشعراء ، معجبين بشعرها وشعرها الاشقر :

قلبي وللثقرة المغناج لهفته
ليت الحنين الذي اضناه افناه
(من قصيدة لبدوي الجبل)

ماتت عزيزة هارون ومازال، شدوها في آذان الكثيرين ،

نطقك الشعر كان شعرا معطرا
كان بوحا مجرحا يتفجر
أخطأ الناس حين ظنوك منهم
أنت من طينة الاثير المجوهر
وحده كان ذلك الصوت في الدنيا
فريدا مميزا لميتكرر ٠٠
(من قصيدة لسعيد ابوالحسن)

وما زلت أذكر همس الشاعر المرحوم محمد الحريري ، الذي لم يكن يتمالك نفسه ،كلما ضمنا مجلس بحضورها ، وراحت تنشدنا شعرها ٠ كان يشتد به الوجد ، فيعبر عن صبواته ، متأوها تارة ، وصارخا مرارا ، آه يا عزيزة ، آه ٠٠

وما زلت أذكر قرع الكؤوس على اسمها في المرابع ، حين نستعيد رؤيتها في أذهاننا او نتلو بعضا من شعرها ٠

تزوجت عزيزة أكثر من مرة ، ولمتنجب ، تزوجت اكثر من مرة ، وكانت تولد عذراء في كل عام ٠ فلم يتأثر شعرها بالزواج ، و لا بالطلاق ٠

شكت عزيزة : " كنت أغني ٠وأبكي ضياعي بذوب الحنين ٠٠

ولكن احساسها الشعري بعوالم الحب والغرام ، بقي احساس فتاة عذراء ، تخجلها اعف الكلمات ، وتربكها فتحمر وجنتها ، وحب الجمال خجولا ، وتغضي حياء ويغض من طهر العفة في عينيها ٠

عزيزة شاعرة عربية ، ونحن العرب امة الشعر دون الامم ،ولكن عزيزة ماتت ، ولم تر ديوانها مطبوعا ، ترى لو كانت عزيزة شاعرة افرنسية او شاعرة انكليزية او هولندية ، او سنغالية ،هل كانت تموت قبل ان يطبع ديوانها ، وتوزع منه الملايين ؟ ؟

اعتادت ان تزورني في مكتبي في سنواتها الاخيرة في كل اسبوع ، وكانت تسألني أسئلة كثيرة ، اشعرتني ، ان عزيزة من

جيل التشتت والضياع ٠ من جيل لو طالت حياة افراده ، لما كانت الحياة اكثر رحمة به من الموت ٠

انه الجيل الذي ولد في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، ولم تملك امهاته روعهن من الخوف ومن الجوع والمرض ، والخيول التركية تنسحب من سورية ، حتى داهم قلوبهن خوف جديد فمدافع فرنسا تقصف ميسلون ورصاص الثوار هو الانشودة الوطنية الوحيدة لعشرات السنين ٠

وشهدت عزيزة الانقلابات المتتالية ، وحارت في موقفها اكثر من مرة ، وأدهشها تراشق التهم بين الانقلابيين ، فأخذت عليها قصائد قالتها في مناسبات متباغضة ٠٠

كان حماسها للشعر وحبها للوطن يدفعانها لانشاد القول

الجميل ، من هنا بعد انقضاء السنين ، يستطيع ان يدل على الصواب ، ويميز الخيط الابيض من الخيط الاسود ، في ظلام انعدام الوعي ..

قرأت معظم المقالات التي تحدثت عن شاعرتنا وقد اثنت كلها على الشاعرة الملهمة .. التي قالت عنها الاديبة وداد سكاكيني:

وسيذكر الناس عزيزة هارون التي كانت شاعرة ملهمة وصديقة مخلصة كما كانت بارة بأهلها وبوطنها وبالعروبة التي تجسمت في شعرها وفي سلوكها ..

وأختم كلمتي بما قالته الكاتبة الصحفية فاديا شحيبر : كانت عزيزة على قلوب الكثيرين .

نداء الأمومة

الى الطفلة اليائسة المحرومة من الحنان
الى التي نادتني ماما وتعلقت بي دون معرفة سابقة
الى من فجر نداؤها في نفسي ينابيع حب عميق كنت اجهله
(الى سامية) الطفلة الشاحبة الملهمة التي غمرت قلبي بندائها الحنون

انا ماما يا بنية هكذا ناديتني
فانتشت بي آه في كل حنية
يا سخية
انت اغليت الهدية
انت اترعت كؤوسي بالنداءات الندية
فأنا ظمأى اليها يا بنية
اغمر الدنيا بحبي كل دنياك بقلبي
فتعالي لينابيعي وحبي
انت عطفي للنداءات الحنونة
وانا ام حنونة
ضعت في قلبي وغنيت شجونه
ما الذي ادناك مني اعلمت ؟
ان في قلبي نبعاً فوردت
فارشفي ما شئت من قلبي حنانا
يرتوي قلبي اذا انت رشفت وابتسمت
كم معان لك في قلبي غريقة
في دمي منذ الخليقة
يا ابنتي انت اغاني رقيقة

ان في عينيك آلاماً وفي قلبي آلام تغني
انت مني لوعة الشوق وآهات التمني
انت آيات يقيني انت اشراقة ظني
الشحوب الحلو في وجهك لهفان معني
حائر في عتمة الدرب حزين يتمنى
فتعالي لفؤادي فصيوغ الشعر منا
انت في عينيك انت
لوعة في لون صمت
انت من اعماق احلامي ضعت
في متاهات الدياجي كم سرحت
أين ماما
ان ماما في ضلوعي ودموعي
اغمريني بالدلال الطفل تغمرك حياتي
انا عطشى للهوى النشوان في اعماق ذاتي
للحنان الثر يرويني ويروى لهفاتي
اغمريني فأنا مثلك عطشى يا فتاتي
انا ام رددي هذا النداء ردديه انت فيه
نغمات ورواء
انا ام وتجلى الله في نفسي ورويت الهوى والكبرياء
هذه الروح وهذا الحسن من روحي ففي روحي كنز من ضياء

عزيزة هارون

بيني وبينك شمعتان

شعر: هند هارون

بيني وبينك أحرف جذلى على وهج السطور
بين وبينك أدمع وجلى على ذوب العطور
ومساكب خضراء تزرعنا على عبق الضمير
وشواطىء ترسو تبحر .. لا مسافة للبحور
قربى تباعد .. أو تقرب .. لست أعبأ بالعبور
ما دام وحدنا المكان على السنابل والزهور
ما دام وحدنا الزمان على الرحيل الى النشور
الشعر أنت .. قصيدة عذراء تسكن في الصدور
والحب أنت .. نثيره تبقى الوسيلة للشعور
والنور في عينيك يسرقه الحنين الى الحبور
البحر زرقته استمدت منهما شلال نور
حزني لأن النور يعشق خصلة الشعر الحرير
يغفو على موجاتها الشقراء في ليل القبور ..
ويسائل الألق الحنون .. يلوذ بالصمت السرير
لكنني وحدي أحدث عن غيابات الحضور
عن ساقيات الحزن .. رباها على الجرح الكبير

(٢)

بيني وبينك يا عزيزة .. في المفارق شمعتان
احداهما رسمت ظلال الحب في قلب الحنان
وتسربت بين الضلوع كما تسلل عاشقان
واستوطنت بدمي لأن البدء مذ كنا وكان ..
نسغا يشعشع في العروق .. ويستقيه الخافقان

ضاءت المبراة السطور كما توقد نيران
وعبرت أنت الى الخلود .. غرست في الصدر الأمان
أسطورة كانت حياتك .. كيف تحكى .. أو تصان ؟
والشمعة الوردية الاخرى عذابات البيان
عزفت على غصن الحياة .. وهدهد الوتر الكمان
أبدعت يا قيثارة الأشواق .. يا حسن الحسان..
غنيت للآلام .. للانسان .. أسكرت الدنان
ترف الحروف يشف بين يديك .. يرفض أن يهان
من روحك الحاني شلاف الوجد .. من طيب الجنان
أني أحسك في دمي .. بيني وبينك شمعتان

(٣)

عذرا عزيزة .. والرؤى تجتاحني عبر انتقالي
وكأنني جبت المدى .. ووجدت عنقاء المحال
وكأنك الفرح الحزين .. ومهجتي أرق السؤال
آلامك الكبرى .. سمت لله .. تهمس في ابتهال
رفعتك فوق الكبرياء .. على اطار من جلال
وصلتك بالحرف المنضر .. واسترحت الى الوصال
أحزانك الشجن الوريف .. يجين يسكن للظلال
ان الطحالب وحدها .. عاشت على أسن الحثال
لم تعرف الحزن العظيم .. لكي تغوص على اللآلي
وتسلقت فوق العريش .. وسيوقها رهن الهزال
ظنت لفرط غبائها .. هاماتها فوق الجبال ..
أما زهور الياسمين .. فمن صفاتك والجمال
من عطرك المنساب ما بين الحقيقة والخيال
من عمق أسرار الحياة .. وما عشقت من الغوالي
من همس نجمتك الوحيدة .. بين أستار الليالي
أولست أنت النجم يا سفرا .. له .. منه ارتحالي

(٤)

أوتذكرين مسار غربتنا .. ولون الحزن يسنى
وسريرك الحاني . . يضم الحيرة الورقاء وسنى
وأنينك الالم المجنح . . والصدى ينداح لحنا
بين الشفاف .. على الضلوع .. بليلك القدسي .. وهنا
وشريط ذاكرة الونى .. صور تهوم وليست تفنى
لا .. لن تبوح بما حجبت . . وسرك المكنون أغنى
وتظل تقتطف الثمار . . على وصابك .. ألف مجنى
كم دمعة برقت للخل وجدها هدبا وجفنا
وأمومة ناديتها " ماما " اذا ما الليل جنا
وأنا .. عزيزة .. غربتي عمار أسفارا ومغنى
وأحبة رحلوا .. وأمي .. أبا النديم .. جبلت جزنا
ورحلت أنت . . مع الربيع .. مع الضياء.. سئمت غبنا
بيني وبينك غربتان . . وأسطر تتلى .. تغنى
وحدي مكثت ولست أعرف للقيود .. الاسي .. معنى
وسبقت أنت فسلمي .. روح الوحيد لديك يهنا
وهناك في العلياء عين لا تنام .. ترين أمنا

(٥)

يا وحي شعر المبدعين .. رسمت ألوانا القصيدة
في مهجة الشعراء .. غنوا للازاهير الفريذة
لعذوبة الالحان في شفتيك أنغاما جديدة
بل كنت ملهمة .. وما أغناك في الصور الشريدة
مجنونة ريح الشتاء على الأعاصير العنيدة
عصفت بخيمتك الصغيرة .. بالركائز .. يا وحيدة
ونظرت للريح العتية بالرضا .. صرت المريدة
وجفت ورق على يديك هديرها .. نسيت وعيده
وبقيت أنت تساهرين الموت .. . لم يكمل رصيده

لانت أظافره على خديك .. اذ لامست جيده
وتطامنت منه الرعونة .. في رحابك .. يا شهيدة
ما الموت للغادين . . للصادين .. في دنيا وليدة
لكننا نخشي العبور .. نخاف اشراك المصيدة
لكننا عدد يضاف الى السنين .. ولن نزيده
نمضي .. ويبقى الخالدون .. ورجع ألحان القصيدة



هكذا قالت أمي

عزيزه هارون

عندما يتخاصم الزوجان ، الزوجة تذهب الى أمها باكية :

الفتاة : ياليتني قدمت يا اماه من قبل الفطام
الام : ماذا .. ؟ أعاد الزوج للضرب الاليم وللخصام
الفتاة : اواه يا أماه ، ان السوط أثر في عظامي .
قد عاد قبل الصبح سكرانا ، يعربد كالطغام
وانهال يضربني ، ولولا الله اوردني حمامي
(منتحبة) واليوم صب علي أنواع البذىء من الكلام ..
قد كان ذنبي انني .. قللت من ملح الطعام.
الام : بنتاه صبرا ، فالصبور له فراديس النعيم
لاقيت قبلا من أبيك عذاب جبار غشوم
وصبرت خاضعة وطائعة لمولاي الكريم
وحملت في جنبي يا بنتاه اثقال الهموم
– تصمتان اذ تلمحان الاب –
الاب : مالي أراك يا سعاد بهيئة الحزن الجلية ؟
(ملتفتا الى الام) أتخاصمت مع زوجها .
يا ربي ..
ما هذه البلية ؟
(الى الفتاة) الزوج يا سعدى مليك ،
والفتاة هي الرعية .
هو سيد ، هو حاكم ، عودي ولا تبقى عصية .

فجثت تقبل كف والدها أمير البربرية .
ومضت الى الزوج اللئيم ، تريق أدمعها السخية
والعدل يبكيها ، ويصرخ هذه الانثى ضحية .

عزيزة هارون

* ألقيت في منتدى سكينة الادبي بعد تأسيسه عام ١٩٥٢ باشراف السيدة ثريا الحافظ .



حياتها في قصيدة..

في الثاني عشر من شباط فبراير من هذا العام ١٩٨٦ ، وفي أحد مستشفيات مدينة دمشق ، أسلمت عزيزة هارون روحها الى بارئها في أعقاب نوبة مرض مفاجئة لم تمهلها على فراش الداء طويلا .

وعزيزة هارون شاعرة طراز وحدها في هذا الزمن الذي برّزت فيه شاعرات عربيات كثيرات ، تميّزنَ بالثقافة الواسعة والموهبة المبدعة وبالجرأة في التفكير والتعبير ، وتصدرت دواوين شعرهن واجهات المكتبات فوازَيْنَ في المنزلة مشاهير الشعراء من الرجال . لم يتح لعزيزة هارون ما أتيح لزميلاتها من حظوظ الدراسة الاكاديمية أو فرص الانتساب الى معاهد التعليم العالية . فهي قد تثقفت على نفسها واستمدت معارفها من قراءاتها الشخصية ، فنظمت الشعر مدفوعة بموهبتها الاصيلة وبتوهج أحاسيسها قبل كل شيء . ولذلك كانت العاطفة في ما نظمته هي المهيمنة أكثر من الفكر ، وكانت الرقة طابعها أكثر من العمق ، ولذلك حمل شعرها من خصائص الأنوثة أصفاها ، مما تؤثره متطلبات الخلق العربي في المرأة العربية مهما بلغت النبوغ أو الشهرة . من هذه الخصائص أعدد اللين والودعة ، والحنان والخفر ، بعيدا عما اجترأت عليه كثيرات من متفوقات الأدب النسوي في أيامنا هذه من ثورة أو تمرد ، أو من مصارحة جارحة في تحليل دوافع عاطفة الأنثى نحو الرجل الذي تحبه أو تكرهه .

هذه الخصائص نفسها من لين ووداعة وحنان وخفر ، وهي ما نستطيع أن نسميها بخصائص الطفولة ، كانت كذلك خصائص سلوك عزيزة هارون في حياتها ، وخصائص جمال محياها الذي كانت أشعارها صورة منه أو انعكاسا له . وقد ظل جمالها ذاك ، حتى بعد أن قطعت في حياتها شوطا متقدما ، يحمل الطابع الطفولي ، مثلما ظلت أشعارها ، حتى بعد أن خاضت تجارب الحياة وتمرست بمحنها ، غنائية بريئة حتى السذاجة ، بعيدة عن التعقيد الفكري أو تلاطم العواطف الموج ، ولعل من خصائص الطفولة تلك أن هذه الشاعرة لم تترك لنا ديوانا مطبوعا على كثرة ما أتيحت لها الفرصة لأن تفعل ذلك . فقد كان

بقلم: د. عبد السلام العجيلي

في نفسها تخوّف من أن لا يكون لشعرها المجموع في ديوان أثر قصائدها في نفوس مستمعيها حين كانت تطلع عليهم بمحياها المشرق وتتلوها بصوتها العذب. بل انها كانت تبدو حقا كطفل في دهشتها أمام من تراه يعجب بمقطوعاتها الشعرية، كأنها ما كانت تتوقع اعجابا بهذا الكلام الذي يندفع على لسانها ببساطة وصدق وعفوية.

وعلى الرغم من تواضع عزيزة هارون، أو من ضعف اعتدادها بنفسها، ومن قلة استجابتها الى ما كان يوجه اليها من دعوات الى القاء قصائدها، فان شخصها وشعرها كانا دوما موضع التقدير في المهرجانات والامسيات الادبية التي شاركت بها في بلدان الوطن العربي المختلفة. وليس من أهون معطيات ذلك التقدير ما كانت تثيره موهبتها، المقرونة بالجمال المقرون بالخلق الكريم، من اعجاب تحوّل عند بعض المبدعين الى روائع. ويقطع كثير من المتأدبين، في سورية بصورة خاصة، بأن واحدة من أجمل قصائد الشعر العربي في عصرنا الحاضر، وهي قصيدة «اللهب القدسي»، انما استلهمها شاعرها الكبير من عاطفة حملها ذات يوم لهذه الشاعرة. وقد زادهم تأكدا من ذلك ان اسم ملهمة القصيدة، «نُعْم»، الذي ورد فيها حين نشرت في العدد الأول من مجلة شعر عام ١٩٥٧، قد أزيحت عنه التعمية عندما ظهر ديوان الشاعر الكبير في عام ١٩٧٨، فأصبح «عَزّة»:

مدلّـةٌ فيكِ، ما فجـرٌ ونجمتـه
مولّـهٌ فيكِ، ما قيسٌ ولـيلاه
سكبت قلبـكَ في وجدانـه فرأت
يا عزّ ما شئت، لا ما شاء عينـاه

أما كاتب هذه السطور فقد كان من حظه أن استمع في مناسبتين مختلفتين الى رواية صديقيه، الشاعرة الرقيقة والشاعر الكبير، عن الظروف التي تمخضت عنها تلك الرائعة التي هي قصيدة «اللهب القدسي». ما سمعته من الشاعر كان اعترافا عاطفيا مهذبا وعفّاً. أما ما قالته الشاعرة فكان عتبا رقيقا يذكّر بعتب ليلى العامرية على قيسها كما أورده شوقي في مسرحيته «مجنون ليلى»:

قد تغنّـى بليلة الـغيل، ماذا
كان بالـغـيل بين قيس وبـيني

* * * *

هذا الوجه الشاعري الغنائي، الذي وصفتُه باللين والوداعة والحنان والخفر، هو الوجه الظاهر من شخصية عزيزة هارون، كان يراها به قراء شعرها والمستمعون اليها في الامسيات التي تنشد فيها قصائدها. الا أن ثمة وجها آخر لهذه الشخصية يعرفه، جملة أو تفصيلا، من داناها أو من بلغ علمه بعض ما لقيته من دهرها وظروفه. هذا الوجه الأخير ليس كله شعرا غنائيا، إذ أن فيه المعاناة وقسوة القدر وجور المجتمع، وفيه كذلك سوء فهم الآخرين وظلمهم في أحكامهم المبنية على الجهل وسوء التقدير.

كل ذلك استهدفت عزيزة هارون له. ولكونها شاعرة. فان الآلام التي تمرست بها تحولت بموهبتها الى عناصر خلق وابداع. حرمانها من الولد، على الرغم من زيجاتها الثلاث، كان باعث غنائها الاطفال في شعرها، لا غناءً بكائيا تندب حظها وحسرتها من الحرمان، بل أناشيد محبة وعطف واشفاق. اما تلك الزيجات الثلاث، التي يعدها عليها من لا يعرف الحقائق مآخذ، فقل أنْ تسربت تأثيراتها بها الى شعرها. حتى أصدقاؤها الخلص وصديقاتها العزيزات ما كانوا ولا كنّ على معرفة بكل ما فعلته تلك التأثيرات بنفسها احساسا وتفكيرا. وحين كانت تُقدَّم اليها عروض بحياة زوجية جديدة من أناس ذوي اسم وقدر، وذلك بعد تحللها من زواجها الأخير، كانت تقابل تلك العروض بابتسامة أسى، متغلبة على المغريات بتذكر ما عانته من قدرها في الايام السالفة. هذا ما كانت تبثه، في بعض الاحيان وفي مناسبات تضطرها الى ذلك، الى من يهمهم خيرها من أصدقاء وصديقات، وتبثه في كلمات قليلة مشحونة لمن يدرك ما وراءها بالمعاني الكثيرة.

الا أنه، مع كل تباعد عزيزة هارون عن الشكوى، وفيما يحسبه الآخرون رضى عن نفسها وقناعة في ما تتحدث به أو تنظمه شعرا، فان المصدور لابد له أن ينفث. ومن نفثات صدر هذه الشاعرة قصيدة نشرتها هي منذ عشرين عاما، وعلى التحقيق في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر من عام ١٩٦٦، في مجلة المعرفة السورية، في عددها السابع والخمسين، عنوانها «الغابة». اذكر اني كنت قرأت تلك القصيدة عند ظهورها، منذ عشرين عاما، فترددت في وجداني اياما كثيرة، اذ رأيت فيها سوداوية قل ان عبرت عنها صاحبتها قبل ذلك. وعندما بلغني نعيها وعدت الى القصيدة اقرأها من جديد تبينت فيها اكثر من السوداوية والتفجع صورة حياة هذه الشاعرة قصتها علينا في مقاطع كثفت الالام والاحزان التي كفت لسانها عن التحدث بها الى اقرب المقربين اليها.

من كانت تخاطب الشاعرة بهذه القصيدة التي سأختم بها هذا المقال، تاركا للقراء ان يتعرفوا من خلال أبياتها الى قصتها المؤسية؟! ليس يهمنا هذا. ولعل هذا المخاطب المجهول لو لبى نداء الشاعرة لتحول مثل غيره وحشا من وحوش الغابة التي تكالبت عليها تمتص دمها وتمزق احشاءها. المهم انها، على الرغم مما كابدته من وحوش الغابة، لم تستسلم الى اليأس والقنوط. لقد ظلت ترى في نفسها زهرة لم يدركها الذبول ونجمة لم يدركها الافول، تأمل في ان تتنفس الحياة مع من يقدّر نضرتها، فيسكره شذاها ويستنير بضيائها:

تعـال الىّ الـيأس بعـد الجـور والـظلمـةْ
فروحـي لم تزل روحـي واني لم أزل نجمـةْ
أداعب شعـري الحـاني تداعب شعري النسمةْ

قلت اني سأترك للقراء ان يتعرفوا على حياة عزيزة هارون، او على احد جوانب تلك الحياة،

من خلال القصيدة التي اختتم بها مقالي . وقبل ذلك اود ان اعرّفهم بطرف من طباع هذه الشاعرة يعين على تقدير دوافعها في بث شكواها بهذا الشكل في تلك القصيدة . وذلك برواية بعض ما شهدته شخصيا منها . فعلى الرغم من ان اقامتي البعيدة عن امهات المدن في سورية لم تكن تتيح لي فرص لقاء كثيرة بعزيزة هارون ، فان صداقتنا العائلية واهتماماتنا الثقافية والادبية المشتركة كانت توثق الصلة بيننا . وكان ذلك يجعل لها عليّ من الحقوق ، عندما توليت في فترة من الزمن بعض المناصب الوزارية ، ما لأصدقائي الآخرين الذين كنت استقبلهم مهنئين وزوارا واحيانا اصحاب حاجات . غير ان عزيزة هارون ، الموظفة في وزارة الاعلام ، تباعدت عن طريق وزير الاعلام الذي كنته طيلة بقائي في ذلك المنصب ، فلم ير احدنا الآخر الا بعد تركي له بمدة غير يسيرة . وعندما سألتها بعد ذلك عن سبب تواريها عني وتخلفها عندما كنت استفهم عنها ، كان جوابها انها لم تكن تريد ان يؤخذ عليها استغلال الصداقة الشخصية فيما يظن انه مغنم او جاه او نفوذ . .

هذه هي صورة من الترافع الحيي الذي كانت عزيزة هارون تقابل به احداث حياتها ، حتى عندما تحمل اليها الاحداث المزعجات والشرور . فاذا فاضت قريحتها ذات يوم بالألم فعبرت عن مشاعرها في مثل قصيدة « الغابة » ، فذلك يعني ان كيل التحمل والاحتمال عندها قد طفح ، فكانت منه هذه المقطوعات المأساوية الحزينة .



الغابة

لماذا انت لم تأت الى الغابة
لتلقى قلبي الدامي وأوصابه

* * *

لقد قدمت للنمر سني عمري
فغلّ النمر في صدري وما صدري
سوى دنيا من الألحان والشعر
وذئب الغابة الضاري ألم تسمع حكاياه
فمنذ كنا صغيرين سمعنا عن مزاياه
أساطير من الرعب واهوالا عرفناه

* * *

لقد خفت من الذئب تسلقت على نخله
كتمت من الاسى رعبي وكنت ندية طفله
فصوّح زهر ايامي جنون الخوف والعزله

* * *

وفي ليل طويل الصمت لم يغمض به جفني
وثعبان يلف رؤاه من غصن الى غصن
أرقّصه على لحني فيسكر قلبه حزني

* * *

اداريه وأغليه ليرحم جرحي الدامي
واسقيه الندى المسفوح من قلبي وإلهامي
ويسقيني تباريحي ويرشف دمعي الهامي

* * *

ولولا طيف جنبة يسامرني بليلاتي
لعفت العيش في بؤسي ولم تزهر هنيهاتي
ولم يصبح عبير اللحن انداء بآهاتي

* * *

عرفت الآن أحزاني وما قاسيت في بؤسي
وكيف نثرت في الغابة بوحي في شذى نفسي
وما زال الهوى يخضل في قلبي وفي كأسي

* * *

تعال اليّ بعد اليأس بعد الجور والظلمة
فروحي لم تزل روحي واني لم ازل نجمة
أداعب شعري الحاني تداعب شعري النسمة

* * *

عسى ان جئت تلقاني أراك حبيبَ ألحاني
وأنسى بالهوى نفسي وأدرك سر ايماني
وأعرف أنني أنثى تعيش بقلب انسان

* * *

فما زلت اجوب الليل أبحث عن سني عمري
أكفكف دمع أشواقي الى ظل الى زهر
أخبو وهج اشواقي وينضب منبع السحر

* * *

فواهاً من كهوف الغاب من حيّاته السود
لقد عشن بأحلامي وعانقن اغاريدي
وسرن بيقظتي رعبا على بؤسي وتشريدي

* * *

وكم قاسيت في أسرى وكنت غريبة الاسر
افجر قلبي الظمآن احلاما ولا ادري

■ كانت دوْمًا موضع التقدير لشخصها وشعرها في المهرجانات والأمسيات الشعرية في مختلف بلدان الوطن العربي

■ على الرغم مما كابدته، ظلّت ترى في نفسها زهرة لم يُدركها الذّبول ونجمة لم يُدركها الأفول

عبد السلام العجيلي
الرقة ــ سورية